كتاب مجلة " كَلِمَةُ حَقٍّ " (١)
هدية العدد (١٢) من مجلة " كَلِمَةُ حَقٍّ " يوليو – ٢٠١٨

ما لا نعرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

حازم صلاح أبو إسماعيل

تحرير: محمد إلهامي



– المحتوى –

المحتوى 2

هذه السلسلة 5

هذا الكتاب 4

مدخل إلى السيرة 5
السيرة هي تذوق الإسلام!
هل السيرة علم؟! 6

الفصل الأول: صاحب السيرة 7
صورة الكمال البشري 9
صفة النبي 11
أخلاق النبي 13
الكفاءة الإدارية للنبي 21
الكفاءة الثقافية 25
الكفاءة السياسية 27
الكفاءة الاجتماعية 30
الكفاءة العسكرية 30
حكمة الداعية 32
الخُلُق مادة الإسلام وقوام الدعوة 34

الفصل الثاني: البشارات بنبوة محمد 39
أهل الكتاب 39
المتحنّفون 51
الإسلام دين الأنبياء 54

الخاتمة: خطورة كتمان العلم وتحريف الدين 60

هذه السلسلة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ .

لو أفنى الإنسان عمره في قراءة ما تكتبه الأقلام لم يبلغ أن ينهي منها إلا قدرا ضئيلا، فالعقول لا تتوقف عن الإنتاج والمطابع لا تتوقف عن الهدير، وفي عصرنا هذا كاد الناس كلُّهم أن يكونوا أصحاب أقلام ولهم كتابات، فما عليك إلا أن تُنشئ حسابًا على موقع تواصل اجتماعي فتصير صاحب منبر عام تكتب فيه.

ومن بين الكثير من الغثِّ قليلٌ من السمين، فأودية العقول كثيرة ونتاج الفلاسفة كغابة ضخمة متشابكة.. فالعلم النافع بالنسبة لبحور الأفكار كالدرر واليواقيت في أعماق البحار.

والعلم الذي تحتاجه أمة مهزومة مستضعفة تريد أن تنهض ليس كالعلم الذي تحتاجه الأمم في حال رفاهيَتِها ورخائها.. فإن أمتنا أحوج إلى فهم الدين الصافي الواضح كما نزل على محمد ﷺ ، وهي بحاجة إلى فهم الواقع المعاصر لتُحسِن إصلاحه بما لديها من الدين، وتحتاج إلى علوم النهوض وبناء الأمم أكثر من حاجتها إلى علوم الترف والزينة والزخارف. وفي طليعة علوم النهوض: فهم الدين والسياسة والتاريخ والعلوم الأمنية والعسكرية.. فالمكتوب في هذه الأبواب أولى بالعناية والاطلاع والدراسة من غيره.

وقد أنعم الله علينا في "مجلة كلمة حق " بفكرة أن نقدّم مع كل عدد كتابا هدية، ونحن بين أن نستخرجه من كتاب مهم، أو أن يكون تلخيصا لكتاب مهم، أو أن يكون ترجمة لتقرير مهم.. وهكذا، نختاره بحسَب أهمية الاطلاع عليه عندنا.

ونرجو أن يعيننا القراء الكرام بترشيحاتهم ومجهوداتهم، فالباب مفتوح لكل مجهود..
نسأل الله أن يكون علما نافعا وعملا صالحا خالصا لوجهه الكريم.

مجلة كلمة حق

هذا الكتاب

تميَّز الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل، حفظه الله وفكَّ أسره، ببصيرة نافذة وذكاء حاد وقدرة عجيبة على استخلاص المعاني من الآيات والأحاديث، ولقد كان قبل الثورة داعيةً بين الدعاة لا يَعرف قدره إلا قليلون، ثم جاءت الثورة المصرية فكشفت عن سبق مكان وعلو مكانة له بين السياسيين والدعاة جميعا.

لا يزال ما أنتجه الشيخ حازم أبو إسماعيل في حاجة إلى خدمة، فكله تقريبا صوتي أو مرئي، ولا يُعرف منه المكتوب سوى كتيب وحيد هو -كما يبدو من لغته- تفريغ لدرس صوتي أو محاضرة، في حين له مئات المحاضرات والدروس، إذ هو طويل النفس في التفصيل والبيان.

وتحويل التراث الصوتي أو المرئي إلى مادة مكتوبة تحتاج إلى جهدا في التفريغ ثم في الصياغة السلمية والعبارة السلسة التي تحاول الحفاظ قدر الإمكان على روح الكلام المنطوق، ثم تأتي مرحلة تخريج الأحاديث والآثار لكي يكون المكتوب عملا علميا، وفي هذه المرحلة ستبدو مشارب الشيخ وموارده ومصادره التي أكثر النقل عنها وتأثر بها وسيبدو منهجه أيضا.
هذا الكتاب مستخلص من دروسه في سلسلة السيرة النبوية، وهي سلسلة طويلة النفس لا أعرف أحدا من المعاصرين أطال النفس في باب السيرة مثله، فقد بلغت نحو ثمانين ساعة صوتية، وبعضها للأسف لا يزال مفقودا، وما استخلصناه في هذا الكتاب هو دروسه الأولى فقط، فقد بدأ السيرة بمقدمة عن شخصية النبي تناول فيها جملة أمور أراد بها تصحيح صورة النبي في أذهان المسلمين.

أُلقيت تلك الدروس في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات من القرن العشرين، وكان الشيخ حازم في ذلك الوقت في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات من عمره، وهو سنٌّ مبكر بالنسبة لقوة المعالجة لموضوع السيرة ولتنوع اهتماماته فيها، فالعادة أن الداعية يستخلص من السيرة ما كان أقرب إلى تخصصه كأن يستخلص المعاني التربوية إن كان من أهل التربية، أو الدعوية الجماهيرية إن كان من أهل الدعوة والعمل العام، أو الاجتماعية إن كان من أهل الإصلاح بين الناس أو بين الأزواج، أو السياسية إن كان من أهل متابعة السياسة وممارستها.. إلا أننا سنجد الشيخ في هذه السلسلة يطوف بتلك المعاني كلها، مما يدل على اتساع عقله وتنوع اهتماماته.

وهذا الجزء الذي استخلصناه، وفيه تصحيح صورة رسول الله ﷺ، نحسب أنه من أهم ما ينبغي أن يُقرأ بعناية واهتمام، إذ إن الصورة المغلوطة التي تشرَّبها المسلمون عن نبيهم أسفرت عن تغييبه قدوةً لهم في جميع أمورهم، حتى لقد صار يُكتب صراحة من أقلام محسوبة على الفكر الإسلامي أنه لا يُقتدى بالنبي ﷺ إلا في العبادات فحسب!!! وأولئك الذين يكتبون مثل هذه المعاني أو يحومون حولها يخطُّون تجارب سياسية بالغة الضرر حتى بالميزان السياسي المادي العلماني فضلا عن ميزان الدين.

اقتصر عملي في الكتاب على اختيار العنوان، وصياغة الكلام المنطوق في عبارة سليمة حاولت قدر الاستطاعة ألا تفقد روح الدرس الصوتي، مع ما تبع هذا من نقل بعض الكلام من موضعه إلى موضع آخر في حالات نادرة للحفاظ على وحدة موضوع الفقرة، إذ الأمر يختلف بين حديث تدفُّق الخواطر وبين حديث الكتابة المرتبة التي تراعي التقسيم والتبويب. وكل هذا مع الحرص التام أن يكون التدخل معدوما أو شبه معدوم في كلام الشيخ إلا ما كان في النصوص والمتون، فلربما ذكر الشيخ نصا فشرحه باللهجة العامية أو سهَّله فلم يلتزم بحرفيته، فكان عملي أحيانا هو رد النصوص إلى أصولها. كذلك تدخلت فحذفت بعض العبارات التي تقال في سياق الشرح بالعامية ولا ينبغي أن توضع في الكتاب، على نحو ما فيه: مزاحُ عابر، أو إشارةُ لأحد، أو ردُ على سؤال من مستمع، أو تشبيهُ خاص بالبيئة المصرية لتقريب المعنى، واستعضنا عن كل ذلك بما يكافئه في اللغة الفصيحة مع مراعاة السهولة واليسر والحفاظ على ألفاظ الشيخ وأسلوبه قدر الاستطاعة. وكنت قد شرعت في توثيق النصوص وتخريج الأحاديث والآثار فوثقت معظمها لكن لظروف خاصة لم يمكنني إكمال هذا فاضطررت إلى حذف ما وثقته، ولعله يتيسر أن نتمه في وقت لاحق إن شاء الله.. فصار الكتاب على هذه الصورة مجرد تحويل الكلام المنطوق إلى نص مكتوب على وفق منهج الكتب.

أسأل الله تعالى أن يجعله عملا خالصا لوجهه الكريم، وأن يفرج عن الشيخ حازم صلاح أبو إسماعيل كربته وأن يفك بالعز أسره من سجون المجرمين، وأن يمتعنا والأمة بطول بقائه وأن يكتب له عمرا مديدا وعملا سديدا وأمرا رشيدا.

محمد إلهامي

٢٧ رمضان ١٤٣٩ هـ

١٢ يونيو ٢٠١٨ م

مدخل إلى السيرة

إذا أردت أن تتحدث عن العقائد فإن الدعوة إلى العقيدة والاستجابة إليها في السيرة النبوية..

وإذا أردت أن تتحدث عن الشرائع فإن إلزام الناس بالشرائع والتزامهم بها أمرٌ قد ضمَّته السيرة النبوية..

وإذا أردت أن تتحدث عن تربية المسلمين على الإسلام فإنه أمر تُعبِّر عنه أصدق تعبير السيرةُ النبوية..

وإذا أردت أن تتحدث عن إقامة حكم ودولة للإسلام، فهذا هو الأمر الذي عبَّرت عنه واقعيا السيرةُ النبوية..

سيرة النبي ﷺ هي العقيدة دعوة واستجابة، وهى الشريعة إلزاما والتزاما، وهي التربية تَرَبِّيًا وتربية، وهى إقامة حكم الله عز وجل في الأرض دولة وسياسة، بل هي كل قضايا الإسلام.

ولذلك، فإن الدارسين للحديث لا بدّ أن يعلموا عن حديث النبي ﷺ في أي يوم من حياته قد قيل، والدارسين للقرآن لا بد لهم أن يعلموا عن الآية في أي يوم من أيام حياته نزلت، وحياتُه هذه هي السيرة النبوية، إذ القرآن والسنة نزولا وتطبيقا لا يستطيع المرء أن يتعرف عليهما أصدق التعرف إلا من خلال تعرفه بالسيرة.

السيرة هي تذوق الإسلام!

انظروا مثلا إلى آية نزلت في الجهاد في سبيل الله، يقول الله تعالى: {انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا} [التوبة: ٤١]، أو يقول: {إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا} [التوبة: ٣٩]، أو يقول: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ} [النساء: ٩٥]،

أو يقول عن أعداء الإسلام {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً} [التوبة: ١٠]، أو يقول عنهم: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم: ٤٦]..

هذه الآيات إذا سمعها مسلم يعيش اليوم في جوٍّ من السلم لا يسمع طلقات الرصاص يختلف لا شك عمن يسمعونها وهم في محنة أفغانستان أو الذين يسمعونها والقصف من فوقهم في سماء لبنان. وبالمثل، فإن حديث النبي ﷺ "مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" إذا سمعه المصريون اليوم فهو على خلاف سماع أهل البوسنة والهرسك اليوم له؛ سيكون له مذاق يختلف. بل إذا سمعه المصريون اليوم وكانوا قد سمعوه بالأمس قبل أن تقع أحداث البوسنة والهرسك أيضا يختلف. لماذا؟ لأن الآية -أو لأن النص عموما- مذاقها يتأثر بالجو المحيط بالسامع؛ إذا كان خائفا يستشعر آيات الخوف، إذا كان فرحاً سعيداً يستشعر آيات الحمد والشكر.

وهكذا السيرة في واقع الأمر هي تذوق الإسلام..

هل السيرة علم؟!

قد يعجب بعض الناس: هل السيرة علم؟ أم أنها قصة بدأت بمولد النبي أو قبل ذلك ثم تنتهي بوفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى؟

أكاد أقول: إن تخلف المسلمين في تمسكهم بإسلامهم راجع إلى أنهم لا يَعُدُّون سيرة النبي ﷺ علما، بل يعدونها رواية!!

إنها علم، وعلمٌ دقيقٌ، علم في روايته وإسناده وضبطه، علم في مدلوله وفقهياته ودلالته على علوم الإسلام من عقائد وغيرها.

وإذا كان ما تعلمناه عن الإسلام وشرائعه ومناهجه وواجباته يصل بنا إلى فهم أنه دين يشمل الحياة كلها ويوجب علينا العمل على نحوٍ معين وينظم أهدافنا في الحياة، فسيأتي دور السيرة لتصوغ كل هذا فنعلم منها: ماذا علينا، وماذا يجب، وكيف يكون ذلك. إن كل مخرج خرج إليه رسول الله ﷺ هو في حقيقة الأمر مخرج مرسوم لهذه الأمة إذا أرادت اليوم أن تنهض بنفسها وأن تعبد ربها وأن تحقق ما يريده الله لها.

ولهذا يطيب لي أن أُسمِّيَها "السيرة النبوية المُعَلِّمة"؛ لأنها سيرة درست كل شيء: العقائد والشرائع والعبادات والأخلاق وصاغتها في صياغة واحدة.

الفصل الأول: صاحب السيرة

صحيح أننا سنقف في السيرة كلها مع رسول الله ﷺ ، لكن يحتاج الأمر إلى إشارة عاجلة عن شخصية النبي. ذلك أن جمهور الأمة الإسلامية لا يعرف في الحقيقة من هو رسول الله ﷺ! فلنكن صرحاء.. إن أغلبنا يعرف واقعة أو قصة، مثل جمعه الحطب، وأنه رحيمٌ بالصغار، وكان رحيما بالكبار، لكن النادر القليل هو من يستطيع أن يُعبِّر عن شخصية رسول الله ﷺ تعبيرا كاملا كأنك تراها. ذلك أنه لم يُقصد أن نتعلم ونعلم شخصية رسول الله ﷺ، بل مجرد شذرات تقال في المناسبات، فإذا أريد الحديث عن الرحمة استُدعي من مواقف النبي ما فعله في الرحمة، أو أريد الحديث في العدل استدعيت مواقف العدل، أو الشجاعة استدعيت مواقف الشجاعة.. إلخ، أما أن تعلم كيف كان رسول الله بالكامل فهذا أمر مقصود أن لا يعرفه المسلمون.

لا بد أن نصحح هذه الصورة التي تَنسب إلى النبي ﷺ حسن الخلق وسمو الطباع لكنها تجهل ملامح شخصيته، كيف يفعل إذا أقبل وإذا أدبر وإذا تصرف وإذا ما كان في موقف غضب أو موقف رضا.. إلخ.

***

وأهمية التعرف على شخصية النبي ﷺ هو في أنها تقربنا من حقيقته الكاملة، وذلك أن الشخصية الواحدة فيها متقابلات، فقد تجد إنسانا بالِغ الحياء وهو -لهذا- ليس شجاعا ولا مقداما، بل إن حياءه قد يؤذيه ويدفعه إلى السكوت عن منكر. وقد تجد إنسانا غضوبا للحق لا يقبل أن يُنتهك الحقُّ عنده ويثور لكي تعود الحقوق لأصحابها، ولكنه تَعَوَّدَ هذا الغضب فما يستطيع أن يكون رفيقا سمْحا حُلوا طيبا. ولذلك فمن القصور أن يتحدث الداعية عن الخُلُق الواحد فيستقر في أذهان السامعين دون أن يتحدث عن الأخلاق المقابلة التي قد تشتبه به أو قد تتعارض معه. ومن هنا فإن القلة القليلة هي التي تعرف على التيقن والحقيقة شخصية الرسول.

إن الداعية إذا تحدث مرة عن سماحة النبي ﷺ ورحمته، ثم تحدث مرة أخرى عن زهده، ومرة ثالثة عن عبادته، ومرة رابعة عن شجاعته.. فإنه يخطئ حين يترك التوفيق بين هذه الأخلاق للناس دون أن يبين ذلك لهم. فالناس لا يستطيعون الجمع والمزج بين هذه الأمور كعلم يصلون به إلى الحقيقة. ومن هنا تفقد الأمة التصور الكامل لشخصية النبي فتفقد بذلك حسن الاتباع والتطبيق لقول الله تعالى {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب: ٢١].. إذ كيف يعرفون الأسوة الحسنة؟!

ربما الواحد منهم يذهب إلى المسجد مبتسما ويصافح ويبش في وجه صاحبه، ويظن هذا تطبيقا لسنة "اللقاء بالناس"، لكنه إذا عاد إلى البيت غضب وتجهم، ويظن أن هذا "غضب للحق"، كأنما ليس في البيت سنة للقاء الأشقاء أو الوالدين، وكأنما ليس في الطريق أو المسجد غضبا لانتهاك حرمة الله!

ولهذا ففي التعرف على شخصية النبي ﷺ نعرف ونتعلم كيف نقابل بين الصفات لنُخرج منها مفهوما واحدا وصياغة واحدة ومعنى واحدا.

إن أكثر الذين يظنون أنهم يقتدون برسول الله ﷺ لا يقتدون به إلا في المظاهر والقشور، وقليل جدا من الناس من اهتم بالاقتداء به في الأمور الكبرى.

انظر مثلا إلى كفاءة النبي، وانظر كم من يقتدي بها؟

قد يعجب الرجل برجل لصفاته الشخصية: هدوئه واتزانه وتبسمه وأدبه والتزامه بالمواعيد ولطفه.. لكن بمجرد أن يُكلَّف بعملٍ إذا بالعمل ينهار بين يديه، لأنه ليس كُفْئًا، لا يعرف كيف يدير العمل. والعكس صحيح أيضا: فقد يعجب المرء بإنسان كفء تشهد له نجاحات العمل بالأرقام والأوراق، فما إن يلقاه حتى يجده سيئ الأخلاق، سليط اللسان أو كذابا أو منافقا أو لا يلتزم بالمواعيد. ولذلك لا ينبغي أن تعجب حين ترى هذه النماذج، ولا ينبغي أن تندهش كيف فشل هذا وهو صادق وأمين وملتزم وكيف نجح هذا وهو كذاب ومنافق. ذلك أن الكفاءة شيء والأخلاق والمميزات شيء آخر. ولذلك نخطئ جميعا حين نتحدث عن شخصية النبي فلا نذكر عنها سوى هذه الأخلاق والسجايا، ونخطئ حين نظن أن الاقتداء به هو في مجرد التحلي بهذه الأخلاق والسجايا، دون أن نتحدث ودون أن نتقدي بكفاءته. ولذلك تجد كثيرا من المسلمين قد يُعجَبون بنابليون بونابرت أو هتلر أو الآباء المؤسسين للولايات المتحدة الأمريكية أو غيرهم من الملوك والسياسيين والمصلحين، ولكنهم لا يفهمون -حق الفهم- لماذا نضع النبي على قمة هؤلاء، لأنهم لا يعرفون النبي ﷺ في جانب الكفاءة.

إن المسلم يحتاج إلى أن يكتمل تصوره عن شخصية النبي ﷺ ، لكي يعلم كيف رباه ربه كما في الحديث "أدبني ربي فأحسن تأديبي"، ونحن لن نفهم كيف أدبه ربه إلا إذا اكتملت لدينا صورة الشخصية، فالمرء فينا إذا حُدِّث عن غلام مؤدب: أخلاقه وكفاءته وعقله وأدبه وسلوكه ونجاحه، يتشوَّق ساعتها إلى أن يعرف كيف رُبِّي هذا الولد، وكيف بلغ هذا.

فلهذا كان حريًّا أن نبدأ بوصفٍ لشخصية رسول الله ﷺ لكي نفهم: كيف كان هذا النبي ﷺ يُؤدَّب ويُرَبَّى، ثم كيف كان يتولى الأمور.

صورة الكمال البشري

إن بعض المسلمين يتوهم أن الرسول ﷺ كان درويشا، إذا ظلمه أحد عفا عنه، إذا أغضبه أحد سامحه، وإذا رأى فقيرا أو جائعا أعطاه وأطعمه، يهش ويبش لأصحابه حتى إذا صافح أحدا منهم لم ينزع يده حتى ينزع.. وهكذا!

لكن إذا رجعنا إلى الحق، واستعرضنا وقائع السيرة سنجد أن رسول الله ﷺ كان رجلا فذا متفردا لا مثيل له، كان عقلية لو وُضعت أمامها عباقرة العالم سواءُ في التاريخ القديم أو الحديث لرجحت بهم، وأقصد العباقرة في أي مجال: السياسي، العسكري، الإداري، الإصلاحي.. إلخ.

كان شخصية ذكية، متفردة، كان عالما مثقفا مدركا يفهم ما حوله، ويفهم المرامي البعيدة، والأسرار، كان ذا ذاكرة قوية، نشيطا وافرَ المجهود، قويا، محببا إلى الناس، كان صورة متميزة عمن حوله.

وكان في غاية النظام في كل كبيرة وصغيرة، يعرف خطواتِ طريقه، فما أوحاه الله إليه أدركه، وما تركه الله له من خطوات وتخطيط استعدَّ له وعمل حسابه، ماذا سيفعل اليوم؟ وماذا سيفعل غدا؟ وماذا بعد غد؟ وما الذي يؤجل؟ وما الخطوات التي تُتَّخذ قبل هذه الخطوة؟ وكم يستلزم ذلك من الوقت؟.. وهكذا! كان شخصية بمعنى الكلمة..

وهو -مع هذا الجد والنظام- رقيق العاطفة، لا يؤدي أعمال البر والرحمة لمجرد أنه منظم يوزع الحقوق كالبر بالزوجات والإحسان إلى الأطفال والرفق بالعبيد والفقراء، بل إنه يهتزُّ من الرقة لمواقف إنسانية طبيعية قد يمر بها كل إنسان، فلقد بكى على قبر أمه وهو في الستين من عمره، بعد أربع وخمسين سنة من وفاتها، وينهمر الدمع من عينيه، فيقول له صاحبه: ما هذا يا رسول الله؟ فيقول: "إنها رحمة يودعها الله قلب من يشاء من عباده، والراحمون يرحمهم الرحمن"، يبكي على أمه وقد مرّت عليه عشرون سنة من النبوة لقي فيها الأهوال! ويفرح بولده الطفل "إبراهيم" فرحة والد بولده، ويحمله ويهتم له، ثم لما تُوفِّي هذا الطفل بكى عليه وقال "إنا لفراقك يا إبراهيمُ لمحزونون"، وينتفض الولد انتفاضة الموت بين يدي رسول الله ﷺ فترى فيه الوالد والأب الكريم.

فلم يكن الأمر قرارا عقليا أو تنفيذا لتكليف بحسن الخلق، بل كان عاطفة تلقائية وفطرة مودعة في قلب النبيﷺ ، وفي المقابل فإنك حين تنظر إليه وهو يبكي عند موت ولده إبراهيم تراه وقد جاء أسامةُ بنُ زيد -الذي هو حفيده في الميزان الجاهلي، لأنه ابن ربيبه زيدِ بنِ حارثةَ الذي اتخذه النبي ولدا له قبل أن يُبطل الله التبني- ورأى النبيّ ﷺ على هذه الصورة من الحزن، فصرخ أسامة، فإذا به يوقف بكاء نفسه وينظر إلى أسامة ويقول: "يا أسامةُ، البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان".

أيُّ قوة تلك التي جعلته وهو في قمة انهمار العواطف في نفسه يقف ليصحح عقيدة أو ليصحح حكما شرعيا لأسامة؟! ولا يشفع له أن الحالة حالة حزن ووفاة! بل يدفن ولده وهو يردد: "إن القلب ليحزن وإن العين لتدمع ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون". ولما كَسَفَت الشمس في ذلك اليوم، وظنَّ الصحابة -من الحزن- أنها كَسَفت لموت ابن النبي ﷺ وحزنه عليه، وقف النبي ﷺ بين هذا الجمع وقال لهم: "إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يَخْسِفان لموت أحد ولا لحياته". ولك أن تعجب في هذه الواقعة كيف كان النبي ﷺ يتوقف -وهو في ذروة العاطفة- ليمنع من الزيغ ويقول: إنها لم تَكسفْ لأجل ابني وإنما هذه من آيات الله.

ولهذا كان رسول الله مثالا للكمال البشري..

كان رجلا يدرك شؤون المجتمع، يتمتع بكفاءة إدارية وسياسية وعسكرية واجتماعية، صاحب لأصحابه، زوج لأزواجه، أب لأبنائه، وهو في ذلك يبلغ الغاية، ثم هو مع الضعفاء من المسلمين فوق ما يُتَصَوَّر، وهو في نفسه رجل رحيمٌ عادل، وهو في كل حال متبعٌ للشرع.

هذه إشارة سريعة إلى شخصية النبي ﷺ التي لا نعرفها. فإنك إذا نظرت إلى نفسك وتفكرت: ماذا فعلت مساء الأمس، وماذا فعلت صباح الأمس.. انظر إلى نفسك وأنت بعيد عن درس علم أو فعل خير، وقِسْ نفسك على هذه الآية: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ} [الأحزاب: ٢١].. كم تبلغ درجة تأسِّيك بالنبي في هذه الأوقات؟!

لا شك أنها ستكون ضعيفة، وهذا لأننا لا نعرف النبي ﷺ جيدا، فلا نعرف كيف نتأسى به في كل أحوالنا، إن أغلبنا لا يعرف سوى ٢% أو ٣% من شخصية النبي فكيف نتأسى بمن لا نعرف؟

صفة النبي ﷺ

عندما نصف رسول الله فإننا نقربه من القلوب، ونسير على ذات الطريقة التي قرَّب بها ربُّ العباد بعضَ أصفيائه وأنبيائه إلى الناس، فقد وصف القرآن صفاتِ بعض الناس كطالوت {وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ} [البقرة: ٢٤٧]، وذي القرنين، وغيرهم. ووصف النبي لأصحابه إبراهيم -عليه السلام- وموسى وعيسى وآدم ونوحا عليهم السلام.

إنك إذا نظرت إلى رسول الله وجدته جميلَ الهيئة، لم يكن قصيرا ولا فارع الطول، بل كان طويلا مُهابا، وكان جمالُه جمالَ الرجال، فأنت ترى فيه رجلا مكتمل الرجولة، تأسرك وسامُته إذ تشعر أنك أمام رجل عظيم.

وكان أسودَ ناعمَ الشعر، وله لحيةٌ كبيرة ناعمة سوداء، وكان النبي يُكْرِمُها ، وكان له شارب، وكان أبيض الوجه مشربًّا بحمرة، وكان إذا دخل على أحد هابه، ولكنَّها هيبةٌ ممزوجة بحب وتعلق، فقد كان بَسَّاما بشوشا حُلو الوجه، وكان دائمَ البِشْر، والبِشْرُ هو انطلاقة الوجه وانبساطه ويكون في كل حال سواءُ صحبه ضحك أو تبسم أو لم يصحبه أو كان الوجه جادا، وكان صادقا، إذا تحدثت إليه لا يلتفت إليك بطرف عينه أو بزاوية بسيطة بل يُقْبِل عليك ويلتفت إليك جميعا بوجهه وعنقه وصدره ينظر إليك ويستمع منك، والإنسان حين يجد من يحدثه مقبلا عليه مهتما به يدقق في الكلمات أكثر، حتى إن المدرس يهتم بكلماته أكثر إذا كان يُدَرِّس لطلاب متفوقين ومنتبهين.

وكانت طريقة النبي هذه تعلم من أمامه أن يحترمه وهو يتحدث إليه، فيتحدث بحديث موقر طائب لا تلتبس عليه كلمة، وكان النبي إذا أقبل عليك لم يقاطعك أبدا، فتظل تتحدث حتى تنتهي، ولهذا لم يحدث أن ارتفعت عنده الأصوات على بعضها -إلا في واقعتين نزل فيهما لوم شديد على المسلمين- وإنما كان يسمع حتى ينتهي محدثه، فإذا تكلم هو لا يجرؤ أحد على أن يقاطعه، وكان كلامه مفصلا، وإذا أنهى كلامه سكت، ليس بثرثار.

وكان جادًّا في مشيته، إذا سار كأنه منحدر من صبب، وتلك علامة الرجل النشط أو المهموم أو المنشغل، الرجل صاحب الهدف والغاية، الذي لا يلوي على شيء يَعرض له، على عكس الفارغ أو الكسول فإنه يهتم بالمشاهدة والمتابعة ويلفت نظره أقل الأشياء، ولذلك كانت مشية الرسول تعكس شخصيته. وإني ألمح في هذا الوصف لمشيته فائدتين:

الأولى: أن المنحدر من صبب -أي النازل من مكان عالٍ- يسير بسرعة تتناسب مع هذا الانحدار، فلا يستطيع أن يتباطأ أو يسرع أكثر من اللازم، فإنه لو تباطأ أو أسرع تعثر، ونحن نعرف من أهل العلوم أن السرعة تتناسب طرديا مع مستوى الانحدار، فكلما كان الانحدار أكبر كانت سرعة المشي عليه أكبر، ومن هنا نفهم أن سرعة النبي ﷺ في مشيته هي التي تشعر حين تراها أنه لا يمكن أن يسير أقل منها ولا أكثر، بل على القدر الذى يقتضيه الحال، فلا تشعر في سيره ببطء أو بسرعة يلفتان النظر. وهذا هو السير الوقور المهاب الذي يحمل الناظر إليه على التقدير والاحترام.

والثانية: أنها المشية التي نعبر عنها الآن بأنها "المشية الرياضية" التي تؤثر في الجسم، المشية التي يطلبها الأطباء من ذوي السمنة لكي تعتدل أجسامهم، لا المشية الرتيبة المُسَليَّة، فهكذا كانت صورة النبي في مشيته.

وبالعموم، فقد كان النبي إذا رأيته هِبْتَه وأحببته، وقرأت البشر والبشاشة والبسمة في وجهه، ثم -وهذا مهم للغاية- هو يلقاك فتلقى منه ما تحب. من المؤسف أنهم أوشكوا أن يُصَوِّروا لنا النبي زاهدا بمعنى أنه غير مهتم لشأن نفسه ولا يحفل بشيء من أموره الشخصية، والواقع عكس هذا، بل كان النبي كثير التعطر حتى يقول الصحابي: "كنا نعرف بمقدم رسول الله ﷺ من قبل أن يقدم علينا من فرط رائحته الزكية"، فكان عطره يسبقه، وكان من لا يعرفه يحسبه بائع عطور، فكانوا يحبون رائحته الزكية. وكان يُرَجِّل شعر رأسه، وكان يهذِّبه ويقصّه.

وقد يتخيل البعض أن النبي ﷺ كان مقتصرا على زي بعينه، والواقع عكس هذا، فقد لبس النبي أنواعا من الثياب، فلبس جبة أهديت له من اليمن، ولبس العمامة على رأسه، ولبس الخمرة -التي نسميها الغُتْرة- ولبس القَلَنْسُوة، كما لبس ما جاءه من ثياب الروم ومن ثياب مصر، ولبس السراويل، وكافة ما كان في عصره من الثياب طالما كانت لا تخالف الضوابط، فلا يُسبِل ثوبه تحت الكعبين، ولا يلبس ثياب الشهرة، ولا ثيابا تعوقه عن العبادة، فقد جاءه يوما ثوبُ ضيق الأكمام فلبسه، فلما حضرت الصلاة عاقه ضيق الأكمام عن الوضوء، فشَقَّ هذه الأكمام ليتوضأ. نعم، كان بإمكانه أن يخلعه لكنه أحب أن يكون ذلك تدريبا لهذه الأمة، فيكون ارتداؤه أولا دليلًا على جواز لبسه، ويكون شقُّه تعليما للأمة ألا يعوقها شيء عن حسن العبادة وصدقها، فرآه الناس وهو يرتديه كما رأوه وهو يشقه ليتم له الوضوء. فيكون الدرس: البس ما تشاء، لكن لا تلبس ما يقيدك في العبادة.

أخلاق النبي ﷺ

وكان مع حسن مظهره وثيابه بسيطا غير متكلِّف، وكان العطاء قريبا إلى شخصيته، رآه مرة رجلٌ وعليه ثوب أُهْدِي له، فقال له: يا رسول الله، أعطني هذا الثوب، فخلعه وأعطاه إياه، فليس معنى الاعتناء بالمظهر أن يُهمل الفقراء والعرايا والجائعين، بل طالما وجد النبي ﷺ ما يُعطى فإنه يعطيه، وما دام يجد ما ينفق منه فإنه ينفقه... وهكذا!

وكان مع هيبته متواضعا خفيض الجناح، لما دخل عليه رجل فارتعد منه، قال له النبي ﷺ: "هَوِّن عليك، فإنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة"، والقديد: هو الخبز الجاف الذي يدَّخرونه، فانظروا كيف يذكر حال الفقر التي كانت فيها أمه لكي يُهدِّئ من رَوْع الرجل ويُظهر له أنه ليس ملكا ولا ينبغي له أن يرتعد أو يخاف. وذات مرة أقبل رجل يريد أن يُقبِّل يد النبي ﷺ فقال له النبي "لا تعاملني كأني ملك من الملوك أو سلطان من السلاطين وإنما أنا كذا وكذا". ودخل النبي ﷺ على المجلس ذات يوم فهَبُّوا له وقوفا فقال لهم: اجلسوا، وكرر هذا المعنى.

ولسنا هنا نتحدث عن الحكم الفقهي لهذه الأفعال، فإنه يجوز الوقوف للقادم، ويجوز تقبيل أيدي العلماء والصالحين، ولا حرج على النفس إن داخلتها الهيبة من أحد، لكنما نتحدث عن شخصية النبي وصفاته.

ولذلك انظر إلى حب الناس وتقديرهم للنبي، ولن أحدثك عن حب أبي بكر وعمر وكبار الصحابة له، بل هذا أبو سفيان -وهو قائد جيش المشركين المحاربين للنبي- لما التقى النبي للمرة الأولى بعد الهجرة، وكان ذلك قُبيْل فتح مكة، رجع يقول: "لقد أتيت الملوك.. كسرى .. قيصر .. فما رأيت أحدا يحبه أصحابه قط كحب أصحاب محمد محمدا، إذا توضأ بادروا إلى وضوئه ...". وهذا سهيل بن عمرو الذي كان رئيسُ وفد التفاوض في صلح الحديبية والذي أصر على أن يمحو من الوثيقة كلمة "محمد رسول الله"، كان بعد إسلامه ما يقع من رسول الله ﷺ في الوضوء قطرةَ ماء إلا ويمسكها ويمسح بها وجهه ورأسه وثوبه تبركا وحبا لرسول الله ﷺ. بل كان النبي ﷺ إذا عاد من غزوة فإن أول من يستقبله الأطفال، ويقبلون عليه، وهو يداعب هذا ويداعب هذا، فكأن عودته هي فرحة عامة بينه وبين الأطفال.

وكان النبي صاحب ذوقٍ عالٍ وأدب رفيع، أو ما نسميه الآن "البروتوكول" أو "الإيتيكيت"، الذي يُعَلِّمونه الآن لبعض الناس، كيف يأكل وكيف يشرب وكيف يخرج وكيف يعطس وكيف يتثاءب.. كل هذه الأمور -لو نظرتم- ستجدونها في سنة الرسول، ولا أقصد هنا سنته أي تعليماته وتوجيهاته للناس، بل أقصد حاله هو نفسه، ففي التثاؤب -مثلا- كان يوصي أن يكظم المرء تثاؤبه ما استطاع، حتى لا يكون هذا علامة على الضيق والضجر من الضيف أو الصديق أو علامةً على استثقال المجلس والرغبة في انتهائه. ولهذا قال النبي "فليكظم ما استطاع، فإذا غلبه التثاؤب فليضع يده.... "، وفي العطس أيضا يتكرر ذات التوجيه.

وكان حريصا على سنن الفطرة، فلا يطيل شاربه -كما يفعل أحبار اليهود- بل كان يقصه حتى كأنه حدٌّ واحد يروق من يراه، وكان يكرم لحيته، ويرفع الشعر الزائد من جسده، ويزيل العرق، يحلق العانة، وينتف الشعر تحت الإبطين، ويقص الأظافر، فتخيل أنك تجلس إلى رجل بهذه الصورة، ويفوح منه العطر، وشأنه كما وصفنا في الكلام والتبسم والبِشْر والإقبال، لا ينزع يده حين تصافحه حتى تكون أنت الذي ينزعها، يعطيك شعورا بأنه يشتاق إليك ويفرح برؤيتك!! وكان مما أعطاه الله له أن يده ﷺ كانت تكون باردة في الصيف ودافئة في الشتاء، وهو بهذه الحال يظل لا ينزع يده من يدك حتى تنزعها أنت.

وكان يجلس وسط الناس، لا يتفضل عليهم في المجلس بل يكون بينهم كأحدهم، فلا يعرفه الداخل من بين أصحابه، بل يسأل: أيكم محمد؟، ولا يتميز عليهم لا فى ملبس ولا فى جلسة ولا فى عظمة، وإنما هو واحد منهم، ومع ذلك له فيهم هذا المقدار.

وكان حَسَنَ الصحبة، فإذا كان مع صحابته في دخول لا يكون أول الداخلين، بل يدفع أصحابه بين يديه ويُدْخِلُهم ويدخل بينهم كأي واحد منهم.

وإن العجيب في أخلاق النبي ﷺ أنها دائما في درجة المثالية المطلقة، فلم يحدث مرة أن أخرجه الغضب عما ينبغي له. فقد أَرسل يوما خادمه أنسَ بنَ مالك لقضاء شيء، فوجد أنسُ -وكان غلاما- الصبيان يلعبون فترك ما خرج لأجله ولعب معهم حتى نسي أمر النبي ﷺ ، يقول: "يا أنيس، اذهب إلى حيث أمرتك"، فانظر إليه يقول له ملاطفا ومداعبا "يا أنيس"، فهل هذه هي العقوبة لخادم ترك شأنه وأخذه اللعب؟!!

يقول أنس: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين"، وهي السنين التي تتغير فيها أطوار حياة الإنسان، فكان طفلا عندما بدأ الخدمة، ومرّ بمرحلة المراهقة، ثم مرحلة الفتوة ثم الشباب من سن عشر سنين إلى عشرين سنة، وهو سن المراحل المتقلبة، أي أنها أصعب عشر سنوات في حياة الإنسان، في هذه العشر يقول أنس: "خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي لشيء فعلته لم فعلته ولا قال لي لشيء لم أفعله لم لمْ تفعلْه".

وكانت للنبي ﷺ قصةٌ مع طفل صغير، هو أبو عمير، وأبو عمير هو أخو أنس بن مالك، أي أنه أخو خادم النبي ، فقد ذهب النبي ذات ليلة ليزور خادمه في بيته، ويتفقد أمره وأمر أهله ويحنو عليهم ويتعرف أحوالهم، وهناك وجد أبا عمير قد انتحى في الدار ناحية وهو حزين، فقال لهم: ما بال أبي عمير؟ فقالوا له: كان عنده طائر صغير اسمه النغير قد مرض فحزن لمرضه -وقد مات هذا الطائر فيما بعد- فذهب النبي إليه وظل يداعبه ويمسح على رأسه ويقول له: يا أبا عمير ما فعل النغير؟ فظل أبو عمير يروي لرسول الله ﷺ قصة عُصفوره النغير!

هذا هو الخُلُق الذي كان يتعامل به النبي ﷺ مع خادمه وأهل خادمه.

وكان كالأب الحنون لمن كانت حاضنته، أم أيمن، وهي الجارية التي تعهَّدته بالتربية من أثناء وبعد وفاة أمه، فلم يعاملها على أنها مجرد جارية تأخذ أموالا مقابل خدمتها فقط، بل كان إلى آخر حياته يزورها في بيتها ويحنو عليها، ولما وجدها وحدها بعد أن مات زوجها كان يبحث لها عن زوج ويقول لصحابته: "مَن سَرَّه أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن"، ويتولى رسول الله بنفسه أمر تزويجها، وزوجها من زيد بن حارثة -الذي كان يُلقب بحِبِّ رسول الله- وأنجبت أسامة بن زيد الذي لُقِّب بالحِبّ بن الحِبّ، والذي لما حاول قوم أن يتشفعوا في مخزومية سرقت لم يجدوا إلا أسامة ليتشفع لمكانته عند رسول الله ﷺ ، فتأملوا: هذا ابن عبده العتيق وابن جاريته العتيقة، كيف كان موقعه عند رسول الله ﷺ !!

وقال لجارية ذات يوم، وقد تأخرت عليه في أمر وهي تلعب، "لولا خشية القَوْد (أي: القصاص) لأوجعتك بهذا السواك"، ولو أنه فعل هذا مع حرٍّ -لا جارية- ما كان مُسْتَنْكرا، لكن هكذا كان خلق رسول الله ﷺ ، فبلغ درجة عالية من درجات الرفعة بين قومه.



هذه الرفعة عادة ما تغير المرء، فيتعامل بمقتضاها، كأن يطلب ممن حوله أن يحملوا له شيئا أو يخدموه بشيء، إلا أن أخلاق النبي ﷺ قد غلب عليها شيء عجيب من التواضع، تواضعُ يبلغ درجة الظن أنه هو المسئول أن يحمل لغيره أو يقدم لغيره المنفعة، ومِن هذا أنه ذهب يوما إلى السوق، فمَدَّ أبو هريرة يده ليحمل عن رسول الله ﷺ ، فقال النبى ﷺ : "صاحب الشيء أحق بحمله"، وسار رسول الله ﷺ حاملا أغراضه وأبو هريرة إلى جواره لا يحمل شيئا.

ومن تواضعه أن أتاه رجل بهدية بسيطة، فَخْذِ أرنب (أي رُبْع أرنب)، فهشَّ له النبي ﷺ ، وصار كلما لقي الرجل يقول: "هذا رجل أهدى إلينا". وجاءه يوما عبدُ فدعاه إلى طعامه، فانطلق معه رسول الله ﷺ ، فيشعر الرجل أنه قريب حقا من قلب رسول الله ﷺ . وكانت تأتيه امرأة ضعيفة العقل فتأخذه بعض النهار، فيمضي معها، فتُمسك بطرف ثوبه وتذهب به إلى بعض أطراف المدينة، وتحادثه وهو مُنْصِتُ لها بغير أن تشعر منه بضجر أو ملل. وإذا كان هذا تصرفه مع المرأة ضعيفة العقل فكيف هو مع أسوياء العقل من الرجال والنساء؟!

هذا الخُلُق العالي يشعر الإنسان معه أنه ضائع حقا، نحن كالضائعين، ولذلك لا نصل إلى أهدافنا. وفي ظل هذا الخلق كان لا بد للقرآن أن يتنزل وينهى عن "الطمع" في حسن خلق النبي، فلا يصح أنه كلما عنّ لأحد شيءُ ذهب إلى رسول الله ﷺ فأفضى إليه بحاجته والرسول ﷺ من فرط حسن أخلاقه لا يمتنع عنه، فأنزل الله قوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ} [المجادلة: ١٢]، فصار ينبغي على الذي يريد مناجاة الرسول أن يقدم صدقة أولا، ربع درهم مثلا على فقير، شيء أشبه بالرسوم، لكن لا يُدفع للنبي ﷺ بل للفقراء، وذلك قبل أن يمضي إلى النبي، فانتبه الناس إلى أنهم كانوا يزيدون في مناجاة الرسول، ولم يلبث أن نُسِخت هذه الآية ولم يُعمل بها من بعد، ونزل قول الله تعالى {أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المجادلة: ١٣]، فصلح الحال من بعد ما كان النبي ﷺ يضيق وقته ولا يردّ أحدا.

وهنا يسأل سائل: فما بال النبي قد عبس وتولى في وجه الأعمى، مع حسن أخلاقه هذه؟

أولا: الأصل أن عبد الله ابن أم مكتوم هو من كان ينبغي عليه أن ينتظر النبي حتى يفرغ من حديثه مع ملأ قريش، ترى لو جئتني وأنا في حديث مع آخرين، ثم اقتحمت على الكلام وسألت عن أمر لا يتعلق بما كنا نتحدث فيه، هل أكون مخطئا لو أني تضايقت من ذلك؟ وربما أكون في منتصف الإجابة أو قبل نهايتها بقليل.

وثانيا: أن النبي ﷺ لم يقع أبدا في أي نوع من الإساءة أو قِلَّة الخُلُق -حاشاه- بل إنه لم يقل له: انتظر! وإنما عبس في وجه أعمى، أي أن الأعمى لن يرى هذا العبوس أصلا، إن عبد الله ابن أم مكتوم لم ير عبوس النبي، ولم يقع له أي ضرر نفسي، والجزء الذى يتعلق بالإرضاء النفسى لعبد الله ابن أم مكتوم بصفته أعمى حصل فعلا، فقد سأل فأُجِيب!

فلماذا إذن عاتب الله نبيه في هذا؟

والإجابة:

أولا: إن أصدق ما قيل في هذا أن الله يصحح لنبيه الفهم، ويضع مقياسا جديدا في الدعوة، ذلك أن خُلُقَ النبي البالغ الرحمة والحرص وصل به إلى فوق ما هو مطلوب منه في دعوة المعرضين، فكأن الله تعالى يقول له: ليس مطلوبا منك أن تبذل كل هذا في دعوتهم حتى الإعراض عمن {جَاءَكَ يَسْعَى (٨) وَهُوَ يَخْشَى} [عبس: ٨، ٩]، فإن هذا هو الأولى. فذلك تصحيح للفهم والمقاييس.
وثانيا: أن الله ذكر في كتابه وعاتب نبيه على شيء لم يره أحد، بل هو شيء في عالم السرائر، فأراد أن يصحح له أنه لا يليق بالنبي أن يعبس ويتولى عن الرجل الأعمى من المؤمنين ولو قطع عليه الحديث مع المشركين، فليس عليه أن ينشغل بالمشركين المعرضين عنه وإنما عليه أن ينشغل بالمؤمنين المقبلين عليه.

فالمسألة ليس فيها أي نقص أخلاقي من النبي ﷺ حاشاه- فإنه أراد أن يقول "ليس هذا وقته"، وهذا صائب في ميزان الأخلاق. وإنما المسألة تصحيح فهم.

لقد تولى الله تربية رسوله بنفسه، فتدخل لكي يصحح له المقاييس فيرشده إلى أن هذه زيادةٌ في الرحمة غيرُ مطلوبة، مثلما حدث في قصة أسرى بدر، فقد عوتب النبي ﷺ لما عنده من زيادة الرحمة إذ أراد أن يعفو عن الأسرى. نعم.. إن خلقَ العفو خلقٌ عظيم، لكن لأنّ الله يتولى تربية رسوله بأخلاق هي "كان خلقه القرآن"، كان يحدد له هذه القيم، فهو تصحيح لفهم الأمة ولفهم الرسول للأخلاق التي يرضاها الله، وليس تصحيحا لسوء خلق أو قلة خلق -حاشاه- فالآية نزلت لمعالجة فهم لا لردّه عن قصور.

ونعود إلى حديثنا فنقول:

وكان رسول الله ﷺ حَيِيًّا صادقا، لدرجة أنه من شدة حيائه ما رُؤِيَ أبدا بين أصحابه مادًّا رجليه، إنما كان يقبضها، ولم يكن ينظر إلى أحدٍ نظرة تحدٍّ، "لا يحد البصر إلى أحد"، ولم يكن يتكلم جالسا بينما أصحابه وقوف حوله، بل كأنه واحد منهم، بل هو الذي كان يخدمهم، وقصته مشهورة حين كانوا في سفر وجاعوا، فذبحوا شاة، فقال أحدهم: عليّ ذبحها، وقال آخر عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ شيُّها، فقال النبي ﷺ "وعليّ جمع الحطب"، وأنت إذا تأملتَ ستجد أنه اختار العمل المتطلب للحركة والنشاط، إذ يقتضى ألا يجلس ولا يكون في ظل ولا مقام، بل يسير بين الجبال والتلال والكثبان والرمل، يلتقط الحطب ويختبر الواحدة منها فإذا لم تصلح بحث عن غيرها، وهو أيضا أكثر الأعمال شغلا للوقت، فربما قضى الساعة أو الساعتين في جمع الحطب الكافي. ولما قالوا له: لا، نكفيك ذلك يا رسول الله. قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكني بشر مثلكم أخدمكم كما تخدمونني. وإني أتخيل الصحابي وهو في قمة الخجل من رسول الله ﷺ الذي يمر ليجمع الحطب وهو في مكانه.

وفي الغزوات كان النبي ﷺ كواحد منهم، يمشي ثلثي الطريق ويركب الثلث، وهو إذ يمشي فإنما يمسك بخُطام الناقة، والصحابي راكب عليها. وتأمل! فهذا الحال على طول ثلثي الطريق وليس ثلثي ساعة مثلا، وإذا قيل له: يا رسول الله، تركب؟ قال: "ما أنتما بأقوى منّي على المشي، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما"، وقد وصلت مسافة الغزوة في بعض الأحيان إلى فوق الخَمسِمئة كيلو متر، ولقد كان قويا، ويفعل ما يعجز عن فعله أشداء الرجال.

وفي وقت سابق صارع النبي ﷺ رجلا فتيا معروفا في العرب اسمه "ركانة"، وكان لا يغلبه من العرب أحد، فصارعه النبي فلم يكن إلا قليلا وصرعه النبي وصار ركانة صريعا على الأرض، فلم يصدق ركانة ما حلّ به، فطلب التصارع ثانية، فصرعه النبي، فطلب ذلك ثالثة، فصرعه النبي ﷺ، فقال ركانة: أشهد أنك رسول الله! فقد أدرك أن الأمر غير طبيعي.

وإنما أقول هذا الكلام لأصحح الصورة المغلوطة، فلم يكن النبي ﷺ داعية جالسا على المنبر مهتما بهندامه وصنعة الكلام، بل هو يدعو إلى الله بكل طريقة، فيستعمل القوة مع من يناسبه مدخل القوة، ولذلك فإنه شخصية قديرة تتمتع بالكفاءة والموهبة.

وهذا سيدنا علي بن أبي طالب في إحدى الغزوات أرادوا أن يقتحموا حصنا، فحمل باب الحصن وحده وألقاه، ثم لم يستطع أن يحرك هذا الباب من بعده إلا ستون رجلا، فأراد سيدنا علي أن يحمل النبي فقال له النبي ﷺ : "لن تستطيع"، فأصرَّ عليٌّ على ذلك، ثم حاول ثلاث مرات ولم يستطع!!

إنه لا بد أن ننتبه إلى أن الأمور لم تكن تسير هكذا بالدروشة ولا بالسذاجة، بل إنها خصائص النبي الرسول!

وفي واقعة أخرى قال علي بن أبي طالب: أنا فارس العرب، أنا الذي لم يغلبني أحد، فقال له النبي "بل ثمة من يغلبك" قال: من؟ قال: فارس خلف هذا التل فانطلِق إليه، فإن صرعته كنت أشجع العرب. وكان سيدنا علي بن أبي طالب له ضربات تسمى "الأبكاري"، أي أنها ضربة بِكْر، ضربة قاضية. فلما ذهب علي بن أبي طالب وجد فارسا ملثما، فبارزه فغُلِب علي! ثم قام مرة أخرى فغُلِب! ثم مرة ثالثة فغُلِب! فقال: أقسمت عليك بالله إلا كشفت وجهك. فكشف وجهه فإذا به رسول الله، وقد أراد ألا يوقع الهيبة في نفسه، إذ لو عرف علي أنه رسول الله ما اجترأ على منازلته بذات القوة.

ومن هنا ندرك أن إمامة رسول الله ﷺ للأمة لم تكن لخُلُق دون خُلُق، بل هو إمام في قوته وفي علمه وفى حكمته وفى عقله وفى خبرته وفى فطنته وفى خلقه وفى كل شيء، يتصاغر المرء أمام هذه الشخصية.

لقد كتب بعض المستشرقين أن محمدا ﷺ ليس بشخصية تصلح للقيادة، بزعم أنه اشترك في حرب الفجار ولم يضرب بالسيف لأن خُلُقَه لا يسمح له أن يحارب بسيف، فهو أقرب إلى الحلم وإلى السماحة، فليس قويا وليس عنيفا، وإنما اشترك في الحرب بحمل السهام للمتحاربين، وهذا غير صحيح؛ بل كان النبي -في غزوة بدر- أقرب الناس إلى المشركين، وفَرَّ كثير من المسلمين في أحد فصمد في قلة معه، وكان في غزوة الأحزاب ممن يحفرون الخندق، وفى غزوة حنين يفر الناس ويبقى هو في المقدمة ومعه عشرة ولولا ذلك لما انتصر المسلمون. وقال على بن أبى طالب: كنا إذا حمي البأس واشتد الوطيس نتقي برسول الله ﷺ من العدو فلا يكون أحد منا أقرب إلى العدو منه، فهو الأول في حالة الاشتباك العسكري وحين تقع المعمعة كما في غزوة أحد وكما صاح في غزوة حنين: "أنا النبي لا كذب"، وهكذا إذا لم تسر الخطة كما أعد لها كان يتقدم الصفوف، ويوقف بهذه القوة والشجاعة زحف المشركين.

وهنا أعود إلى قوله ﷺ "لستم أقدر على المشي مني، ولست أغنى عن الأجر منكما"، إن المرء لا يتخيل أنه راكب على الجمل والنبي يمسك بخطام الناقة يسوقها، كيف تحتمل النفس أن يَفعل هذا معه سيدُ الخلق الذي غُفر له ما تقدم من ذنبه، كيف يعامله بهذه الصورة العجيبة.

ومن العجيب كذلك أن صحبة النبي ﷺ كان فيهم الشريف القرشي والعبد الحبشي والعربي والأعجمي والصغير والكبير، وكلٌّ منهم يرى لنفسه منزلة خاصة فوق منازل الناس مع رسول الله ﷺ لما يراه من تعامله معه ولطفه ومداعبته، فهذا أبو هريرة يُغَيِّر النبي ﷺ اسمه من "عبد شمس" إلى عبد الرحمن، ولما رآه يحمل قطة يلاعبها قال له: ما هذه يا أبا هِرّ؟! فصار يُلقب بأبي هريرة، فأحب هذا الاسم وصار اسمه ولم يعد اسمه "عبد الرحمن" مشهورا.

وذهب النبي ﷺ يوما إلى بيت ابنته فاطمة، فسأل عن علي بن أبي طالب، فقالت له: ذهب مغضبا، فخرج النبي يبحث عنه ليطيب خاطره ويصلح بينه وبين زوجته فوجده نائما في المسجد، والذي كان مفروشا بالحصباء والرمال والتراب، فوجد أن لحية عليٍّ قد أصابها تراب، فأيقظه النبي ﷺ وظل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول: قم يا أبا تراب، فيظل علي يروى هذه القصة ويقول خصني رسول الله ﷺ بخصائص لم يخص بها غيري ويذكر من ضمنها هذه المداعبة الرقيقة اللطيفة وكنيته الجديدة.

لقد كان الناس يهابون عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لشدته، بينما تجد مهابة الناس للنبي ﷺ لم تكن لشدته، وإنما للكمال في شخصيته، ولذلك فإن أكرم الناس هو من يرى الكريم بعينه ويقربه فيزداد له حياء وخشوعا وأدبا، فهذا هو الأدب العالي الذي يجب علينا أن نتعلمه.

إن كل هذه المهابة وكل هذا الحب للنبي ﷺ مع تقربه من الناس يدل إلى أي مدى أجاد النبي ﷺ في إقباله على المسلمين، فقد كان متفردا بينهم وهو كأحدهم.

انظر إلى النبي ﷺ حين يساق واحد من الناس إلى المحاكمة بتهمة السرقة، فيأتي الشاهد فيقول: لقد رأيته يسرق، فيغضب النبي ﷺ ويتمعّر وجهه ويقول: هلّا قلت رأيته يأخذ؟.

تأمل هذا الفارق الدقيق، ينبغي أن لا يقول رأيته "يسرق" بل "يأخذ" فلربما أسفرت القضية عن شاهد آخر يقول: إن الذي أخذه هو ملكه، أو أنه مكلف من قبل فلان بأخذه، أو غير ذلك. فلا يكون الشاهد قد ظلم المتهم. هذا الحرص من النبي هو السياج الذي كان يحمي به المجتمع الذي يسبغ عليه الرحمة.

وتأمل هذا الحرص على بيته ومع أزواجه، لقد حَدَثَت في بيت النبوة أزمات، بعضها شديد إلى درجة أنه أشيع بأن النبي طلق زوجاته جميعا، وذلك أنهم اجتمعوا يطالبون بزيادة النفقة التي لا تكفيهن، فيما يشبه أن يكون مؤتمرا، وكان يبتسم ويضحك، ثم أصابه الهمّ من هذا الأمر حتى نزلت آيات شديدة تقول لهن: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]، انظر إلى التخيير بين إعطائهن المال مع تطليقهن، لأن المرأة التي ليست لها عزيمة بيت النبوة لن تبقى فيه. وبين أن يصبرن مع الوعد بالأجر العظيم في الآخرة.

هنا جاء أبو بكر -وابنته هي عائشة زوجة النبي ﷺ فدخل على النبي ﷺ فقال له: "يا رسول الله، لقد جئتك من عند أم فلان -زوجته- جاءتني تسألني النفقة" فوجأت عنقها (أي: ضربتها)، فسكتت، فضحك النبي حتى بدت نواجزه، من البِشْر -وكان إذا استبشر عُرف في وجهه تلألؤ السعادة والبشر- وقال له: "يا فلان، ها هن حولي يسألنني النفقة"، فقام الرجل إلى ابنته يريد أن يجأ عنقها، فقام النبي فحجزه عنها، ثم خرج أبو بكر. فقال النبي ﷺ لعائشة: "أرأيتِ حين كان يريد أن يضربك ماذا فعلت؟"، يريد أن يقول: لقد حجزته عنكِ، فضحكت، فدخل أبو بكر في هذه اللحظة فوجدهما يضحكان فقال: أدخلاني في السلم كما أدخلتماني في الحرب"، فقال: نعم. فدخل.

هذه الصورة اللطيفة أنشأها النبي ﷺ في وسط الأزمة، ولذلك لم تتفاقم المشكلة ولم تطلب زوجةٌ السراح.

وفي يوم آخر عقدوا مؤتمرا آخر، وقالوا له جميعا وفي هذا المجلس: من أحبنا إليك. وهذا يدلك على ذكاء النساء، إذ يجوز الكذب على الزوجة كأن يقول الزوج: أنتِ الأجمل، أو أنت الأحب إلي، ونحو ذلك. فلما اجتمعن جميعا معا، سألنه هذا السؤال، فقال لهم: غدا أخبركم.

إنه من العجيب لرجل في مثل همّ الرسول ﷺ وحاله أن يستجيب لهذه الأمور، فلم يقل لهم مثلا: ما هذه التفاهات؟ وهو المشغول بأمور فارس والروم وقريش وغطفان والصحابة والتربية والجهاد وقيام الليل، لم يقل لهم: ألا تُقدِّرون ما أنا فيه من المشاغل؟! لم يترك لهم البيت! بل أجابهن لما أرادوا، ثم طاف عليهن بالليل فأعطى كل واحدة درهما على وعد بألا تخبر أحدا، فلما اجتمعن من الغد وسألنه من أحبنا إليك؟ قال: صاحبة الدرهم، فظنت كل واحدة أنها هي.

واعجب أكثر من رجل مثله يأخذ زوجته في رحلة خلوية، يخرجان بعيدا عن الناس ويتسابقان، فتسبقه، وفي المرة الثانية -وهو في التاسعة والخمسين من عمره- يخرج مرة أخرى معها في رحلة خلوية فيسبقها، فيضحك ويقول: واحدة بواحدة. فتأمل كيف ينشغل بجهاد الكفار والمنافقين وبخفض الجناح للمؤمنين وبتربية الأمة والحكم والشرائع والوحي وقيام الليل، ومع هذا لا يفوته أمر كالخروج مع زوجته في رحلة!!

وفي جلسة أخرى يجلس إلى زوجته فيحكي لها حكاية أم زرع، وهي حكاية إحدى عشَرةَ امرأةً اجتمعن وحكين لبعضهن عن أحوال أزواجهن! فكأنما هي حكاية من إحدى عشَرة حلقة.
وهكذا كان رسول الله ﷺ في كل شأنه.

الكفاءة الإدارية للنبي ﷺ

حين تبحث في السيرة تجده لا يدير عملا إلا ويخرج على قمة ما يخرج عمل على الإطلاق.

فلقد ظهرت الكفاءة الإدارية للنبي ﷺ في حياته كلها، حتى في وقائع صغيرة تدل عليها بصورة جلية، ففي غزوة الأحزاب -مثلا- تعامل مع فكرة الخندق التي لم تنبع منه هو، بل أتاه بها واحد من الناس، فقبلها ونفذها بل جمع الأمة كلها على تنفيذها رغم أنها ليست فكرته. ثم انظر كيف أدار النبي تنفيذ هذه الفكرة: لقد رسم المدينة أولا وضبط حدودها وحدد المكان الذي سيحفر فيه الخندق، كل هذا قبل أن تنطلق أول ضربة فأس، وهنا يبدو الفارق بين عمل المحترفين المنظم المخطط وبين عمل الدراويش المتعجل السطحي المتواكل، بين من يريد أن يؤسس للإسلام دولة وبين من غايته حضور جلسات دعوية أو علمية فحسب.

لقد حدد النبي ﷺ تفاصيل الخندق: وقت الحفر والزمن الذي يستغرقه وأبعاده: طوله وعرضه وعمقه، وأين يذهب التراب الناتج عن الحفر، والقوة البشرية التي ينبغي أن تعمل فيه: عددها ومهماتها -إذ لن تعمل كلها في الحفر، وإنما بعضهم في رفع التراب وبعضهم في نقله- ومراحل حفره، وقسم الناس إلى مجموعات، وحدد لكل منها نقاط البداية والنهاية، وكان تقسيمه للمجموعات على أساس يحفزهم على العمل، بمعنى أنه تقسيم قَبَلي يعتمد على إثارة التنافس بين القبائل، فلا يضطر معه أن يستحثهم لأن التنافس يقوم بهذا الدور التحفيزي بطبيعته.

ثم بقي في الناس من ليست له مجموعة، مثل بلال -فهو حبشي، والأحباش ندرة- وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، وهؤلاء لا عشيرة لهم، فكان من حكمة النبي ﷺأن رفعهم إلى سماء الهمة حين جعلهم معه. انظر إليه وقد سأله الناس: يا رسول الله، فمع من يكون سلمان؟ فيقول: "سلمان منّا آل البيت"، فإذا بهذا الصحابي الجليل يرتفع إلى درجة أنه في الفرقة التي هي آل بيت رسول الله، فتصور كيف رفعه النبي من حاله التي كان فيها عبدٍ يُباع ويُشترى ولا عشيرة له إلى أشرف الأنساب على الإطلاق، وإلى الفرقة التي يقودها قائد الأمة في حفر الخندق! ثم تصوَّر بعد هذا كيف ستكون همته وطاقته في العمل والبذل.

كل هذه العملية يذكرها الخطباء والكُتّاب في سطر واحد أو عبارة واحدة: حفر الخندق. بينما ينبغي أن يتعلم المسلمون كيف أدار النبي ﷺ عملية حفر الخندق.

وثمة أمر آخر لا بد من لفت النظر إليه: أنتم تعلمون أن الأطباء حين يُجرون العملية الجراحية، فإن الفريق الطبي الذي يساعد الجراح يقوم له بالأعمال التحضيرية مثل: تجهيز الأدوات وتعقيمها وحلق شعر المريض وإلباسه الثوب المعقم ووضعه على سرير الجراحة وتخديره وتجهيز الغرفة.. إلخ. هذه العمليات يسمونها "الأعمال القذرة Dirty Work"، لأنها الأعمال التي لا تحتاج إلى مهارة الجراح العبقري الذي سيُجري العملية الجراحية، ولهذا فيُعهد بهذا لمن ما زال صغيرا في مهنة الطب أو لفريق التمريض وهكذا.

لقد حدث هذا في حفر الخندق، لقد رأى بعض الناس أن عملها أقل من عمل غيرها، فالذين يحملون التراب مثلا أو يحضرون الفؤوس أو ما شابه رأوا أنهم في رتبة أدنى ممن يحفرون الخندق، فإذا برسول الله ﷺ يختار لنفسه عملا ضمن هذه الأعمال التحضيرية، لماذا؟

ليجعل همة الذين يعملون في هذه الأعمال في السماء، فكان يُرى سيد خلق الله ﷺ الذي قارب على الستين من عمره -وقد شابت بعض الشعر في رأسه ولحيته- وهو يحمل هذا التراب، يجلل لحيته ورأسه، وينقله بهذه الصورة.

ثم هو حاضر كذلك في العمليات الصعبة، فحين واجه الذين يحفرون صخرة لا تنكسر، جاءوا إليه، وقالوا: يا رسول الله، اعترضتنا صخرة فأقبل -وكان قوي البنية لا يماثله أحد في قوته- ويقول: الله أكبر، ويضربها فتتفتت تحت يديه، ثم هو بعد أن يؤدي المهمة الشاقة التي لا يستطيعها أحد، يعود إلى عمله الأول هذا.

والمقصود من كل ما سبق -دون أن نطيل في ذكر التفاصيل- أنه حوَّل عملية حفر الخندق إلى عملية إيمانية تربوية من أعلى درجات الإيمان والتربية، وعلى مثل هذا كانت سائر الأعمال:

ففي الهجرة كان تخطيط النبي يدل على رجل كفء يفهم الوضع جيدا، يفهم جهات الشمال والجنوب، ويسير إلى الجنوب في حين هو يهدف إلى الشمال بغرض تضليل من سيتعقَّبه، ويأتي بمن ينقل الأخبار، ومن يُعفِّي على آثار الأقدام، ومن يأتيه بالطعام، وحين لم يجد من المسلمين دليلا يدله على الطريق اختار واحدا من المشركين ولكنه يعرف صفته وأنه أمين في عمله وإذا أخذ أجره لم يُفشِ السرّ. وحتى في ردِّ الأمانات لم يكن الأمر -كما يظن الكثير- أنه فعل ذلك لمجرد أنه أمين، فلو كان الأمر مجرد الأمانة لردَّها إلى أصحابها قبل الهجرة بأيام، ولكن لو أنه فعل ذلك لعرف الناس أنه يرد الأمانات مما يشير إلى أنه بصدد عمل ضخم سوف يقدم عليه. لقد رتّب أمورا كثيرة: الطريق والراحلة والأموال ومن يسبقه ومن يلحقه.

لم يكن الأمر مجرد حضور الصلوات والدروس والمساجد، لا.. بل كان النبي ﷺ يعرف أصحابه حق المعرفة، فيقول: فلان أقضاكم، فلان أقرؤكم للقرآن، فلان أعلمكم بالفرائض، فلان سيف الله المسلول، فلان أسد الله... وهكذا، حتى في الآذان قال للرجل: انطلق به إلى بلال فإنه أندى منك صوتا! إننا نعرف الآن أن بلال بن رباح صاحب صوت حسن لأنه صار المؤذن، لكنه قبل أن يكون مؤذنا، من كان ينتبه إلى جمال صوته؟! من العجيب أن النبي ﷺ أحاط بأصوات أصحابه حتى انتبه إلى هذا العبد الحبشي الذي كانت كل قصته أنه أسلم وعُذِّب -مع غيره ممن عذبوا- ثم أعتقه أبو بكر ودخل في زمرة المسلمين ضمن غيره ممن دخلوا. ثم يأتي من رأى في منامه الأذان فيحكي ذلك

لرسول الله ﷺ فيكون الرد: انطلق به إلى بلال فإنه أندى منك صوتًا. أُقسم أني كنت في منتهى الحيرة والعجب لهذه الإحاطة غير العادية بقدرات الصحابة، وبهذا ارتفع رجل من كونه عبدا حبشيا ربما لا يرى في نفسه أي إضافة للأمة فيكون مؤذنا للأمة، تأتي إلى المسجد لأذانه، لأنه أندى الناس صوتا!!

انظر في مجلس العلم، هل من داعية الآن عنده هذه الإحاطة بأصوات من يجلسون إليه ويستمعون له؟ ولا أنا! لا أعرف من بين عشرة من يكون منهم أجملهم صوتا!

وهو لعلمه بقدرات أصحابه يصرفهم إلى الأمور التي يحسنونها، فهذا يتعلم الفرائض (المواريث)، وهذا يتعلم العلم، وهذا يتعلم قراءة القرآن، وهذا يروي الحديث، وهذا يختص بالجهاد، وينظر إلى الغلام في سن الثانية أو الثالثة عشر فيقول: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"، ويبعث الداعية ليُعلِّم الناس، ثم يبعث القاضي ليقضي بينهم، وهكذا قَسَّم النبي قدرات الأمة كلها.

وحين ازداد عدد المسلمين ودخل الناس في دين الله أفواجا، كان الناس الذين أسلموا حديثا يتزاحمون عند رسول الله ﷺ، ويبكرون في حضور الصلاة والمجالس حتى يرقبون حركة رسول الله ﷺ وينظرون في أحواله: كيف يتكلم؟ كيف يسكن؟ كيف يتحرك؟ كيف يقول؟ كيف يصلي؟ كيف يستسلم؟ كيف يغضب؟.. وهكذا. وهذا التزاحم أمر طبيعي، فلو بُعث النبي ﷺ بيننا اليوم لذهبنا إليه في أي بلد ينزلها لنراه وننظر إليه ونتعلم منه.

لكن هنا حدثت أزمة، لقد صار السابقون إلى الإسلام يضطرون إلى الصلاة خلف الصفوف الأولى لتزاحم الناس عليه، وكذلك في مجالس العلم والوعظ، وهذا سيتسبب في نقصان العلم: فأولئك الذين رأوا السنين الأولى من حياته لم يعودوا يرون أحواله في السنين الأخيرة لتزاحم الناس، وهؤلاء الذين تزاحموا يرون النبي وسيرته وأحواله في السنين الأخيرة ولم يكونوا قد رأوا السنين الأولى، فمن هنا لن يكتمل العلم لأحد، وسينقص نقل السنة وفهم أحوال النبي ﷺ والصورة العامة له في أحواله كلها. فإذا برسول الله ﷺ ومن أجل أن تنجح عملية تعليم الدين لأجيال المسلمين- يقول: "ليليني منكم المهاجرون والأنصار"، أي ليكن الأقرب مني هم المهاجرون والأنصار، فتُخلى لهم الصفوف الأولى لأنهم الذين شاهدوا الدين والعلم من أول الأمر فينقلونه كاملا. ولهذا فإن علماء الأصول يجعلون من أدلة التشريع: قول الصحابي، لأنه الذي شاهد النبي ﷺ وعرف أحواله، ولهذا أيضا تجد من أئمة الفقه من يأخذ بعمل أهل المدينة لأنهم الذين لازموا النبي مدة طويلة -ليست ساعات ولا أياما ولا شهورا- فانتشار أمر ما بينهم يدل على أنه سنة أقرَّ بها النبي ﷺ.

هذا هو النبي ﷺ نفسه الذي كانت تأخذه امرأة ضعيفة العقل فتنطلق معه وتفضي إليه بأمر من أمورها، ويسلم على الصبيان ويداعب الضعفاء ويلين مع الخدم والعبيد. فالذي لا يعرف عنه سوى هذه الصورة سيتصور أنه إذا أقبل عليه أحد ليصلي في الصف الأول فلا بد أنه سيرحب به ويثني على عمله ويحثه على لزوم الصف الأول. بينما واقع الحال غير هذا، لأن الكفاءة الإدارية تلزم بأن يبعد هؤلاء الناس ويأتي بالسابقين من المهاجرين والأنصار ليكونوا أقرب إليه. وهكذا لم تنقص كفاءته الإدارية من حب الناس له ولا من حبه وقربه للناس.

وكان إذا أراد أن يوجِّه أصحابه إلى سفر أو جهاد يجعل كل ثلاثة في ركب واحد، هؤلاء الثلاثة كانوا بمنزلة "الوحدة المتكاملة"، فيجعل من بين الثلاثة اثنين من الميسورين ويُلحق بهما رجلا فقيرا، فيجد الفقير في سفره عملا يقوم به وهو أن يؤدي عملا لصاحبيه، فيجد نفقته من أجره الذي يأخذه منهما. وكان يجعل من بين الثلاثة من هو ضعيف ومن هو قوي. ويختار الثلاثة بين المتحابين والمتآلفين، فيجمع هذا التقسيم بين إطعام الفقير وراحة الميسور وزيادة الود والتآلف فيرجعون أكثر حبا وتآلفا: شبع الجائع وخُدِم الضعيف وتوثقت الصلة.

هذه الكفاءة الإدارية أحاطت بالأمة، فإنه يعرف من يحيط به واحدا واحدا، فلا يُخرجهم هكذا كيفما اتفق، بل يختار هذا مع هذا مع هذا، بناء على الفوارق الاجتماعية والمادية والجسمانية، فيستطيع أن يُخرج لبنات وخلايا تجعل المجتمع أقوى مما كان.

إن الضعف الذي نحياه الآن لم يكن ليشهده الصحابة، ذلك أن الذي قادهم لم يكن رجلا ساذجا أو درويشا -حاشا لله- يعتمد على نزول الوحي دون مؤهلات، لا.. بل كان في كل صغيرة وكبيرة يعرف كيف يُمَكِّنها، وكيف يُمَكِّن لها، وكيف يجعلها مُحْكَمة. إن هؤلاء الصحابة إنما هم ثمرة ثلاثةٍ وعشرين عاما من الإحكام: الإحكام الإداري والتربوي على أقل تقدير.

إن مشكلة الأمة الإسلامية اليوم تكمن في هاتين الكلمتين: الإدارة والتربية..

إنه ليس لدينا أزمة في الإخلاص، فإن الذي يدخل اليوم إلى المجتمع الإسلامي عادة ما يكون شديدَ الإخلاص، إنما الأزمة أنه يدخل بهذا الإخلاص ثم لا يجد عملا يتوفر فيه إحكام التربية وإحكام الإدارة، فيخمد ويكسل. فتنهار "عملية الصناعة الإسلامية".

الكفاءة الثقافية

وكانت لدى النبي ﷺ كفاءة أخرى أحب أن أسميها "الكفاءة الثقافية"، فلم يكن قليلَ المعلومات، بل على العكس، وإليك هذه الواقعة وهي من عيون الوقائع:

لما أرسل النبي ﷺ رسائله إلى ملوك العجم بعد صلح الحديبية وتوقف الحرب بينه وبين قريش، فأرسل لعظيم القبط في مصر، ولكسرى ملك الفرس، وللقيصر هرقل ملك الروم، ولكبير الأحابيش. وقد استغرب المحققون من كلمة في رسالته لم يستعملها العرب أبدا، ولا يُدرى أصلُها، وهي ضمن رسالته لهرقل ملك الروم التي جاء فيها: "أَسْلِم تَسْلَم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن لم تفعل فإنما عليك إثم الإِرِيسيين"، وإذا بحثت في معاجم اللغة العربية لا تجد هذه الكلمة، وأما علماء الحديث فقد شرحوها بأنها تعني: العامة والشعب، أي الزُّرَّاع والصناع والفلاحين. وقال المحققون بأن هذه الكلمة "الإِريسيين" هي كلمة رومانية، ثم إن الروم كانوا يستخدمونها مصطلحًا يُطْلَق على أصحاب المهن الحقيرة الصغيرة الذين كانوا يُعدُّون في المجتمع أغلبية كبيرة.

والسؤال هنا: من أدرى رسول الله ﷺ وهو هذا الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب ويعيش في مكة، من أدراه بتشريح وتقسيم المجتمع الروماني، وهذه الكلمة التي تطلق مصطلحًا على هؤلاء؟

لقد أراد أن ينقل إلى ملك الروم -في طيات هذه الرسالة- رسالة أخرى تقول: "يا ملك الروم، إنّ الذي يبعث إليك بهذه الرسالة ليس أعرابيًا جِلفًا قد جلس في الصحراء داخل خيمة تظله راية وحوله غنمات وكلب يحرسها، ليس أعرابيا يرسل إليك رسالة عنجهية، بل إنه يرسل إليك وهو يعرف معنى الكلمة الرومية ودلالتها في التقسيم الاجتماعي لبلادك". وقد كان هؤلاء الملوك عادة إذا تلقوا هذا ينفعلون لمثل هذا السر ولغيره.

وقس على هذا علمه بلهجات العرب، ومن ذلك أن رجلا أتاه يسأله: أمن امبر امصيام في امسفر؟ فقد كان الرجل من قبيلة ينطقون الألف واللام ميما، فأجابه النبي ﷺ قائلا: ليس من امبر امصيام في امسفر. وهو بهذا يجيبه مداعبا ومتألفا له.

ويأتيه شاب هندي يتحدث إليه فإذا برسول الله يحدِّثه في الإسلام ويكثر من ذكر الكلمات الهندية في هذا الكلام الذي يذكره له لأنه اشتغل بالتجارة مع هذه القبائل لما كانت تقدم إلى مكة ولما سافر هو خارج مكة رأى منهم فعلم وحفظ.

كان شخصية مثقفة، ليست تلك الثقافة العابرة، بل تستطيع أن تقول أنها: ثقافة كاملة. ولهذا لم يكن رسول الله شخصية سهلة، بل كان شخصية عميقة، يستطيع أن يفهم ما يحيط به، فإذا صدر عن أمر صدر عن نفس ممتلئة بمكونات القوة.

الكفاءة السياسية

لقد كان النبي ﷺ رئيس دولة يعرف جيدا ويزن جيدا الشخصية التي أمامه، فنحن الآن نرى تغير رئيس الوزراء الإسرائيلي -مثلا- فنجد أن سياسة هذا تختلف عن هذا رغم اتحادهما في اليهودية وفي الحرص على مصالح دولتهم. لقد كان النبي ﷺ يدرك هذه الفوارق ويزن الشخصيات؛ ففي صلح الحديبية جاءه أكثر من رسول من عند قريش، أولهم: سهيل بن عمرو، فما إن رآه النبي ﷺ حتى تبسم وقال: إنما أرادت قريش الصلح إذ أرسلت هذا، وبناء على هذا يكون التفاوض معه.

وبعد سنتين فحسب من هذا الموقف أرسلت قريش أبا سفيان في موقف آخر، فكان النبيﷺ على علم بأن أبا سفيان ليس كسهيل بن عمرو، وأنه يحتاج لطريقة مختلفة فعهد إلى واحد من الصحابة أن يقف به في مكان بعينه، ثم أمر كتائب الجيش أن تتجهز وتستعد وتمرّ من المكان الذي يراها منه أبو سفيان. فيرى أبو سفيان الكتيبة فيسأل متعجبا من قوتهم وكثرتهم: من هؤلاء؟ فيقال له: هؤلاء بنو فلان، ثم التي بعدها فيسأل: ومن هؤلاء؟ فيقال له: هؤلاء بنو فلان، وهكذا تمر به الكتائب فيزداد رهبة وهيبة، حتى تمر به آخر الكتائب وهي أكبرها وأقواها فيقول: من هؤلاء؟ فيقال له: هذه كتيبة المهاجرين والأنصار. فينهزم أبو سفيان معنويا ويقول للعباس بن عبد المطلب: لقد صار ملك ابن أخيك ملكا عظيما، فيقول: ليس بملك يا أبا سفيان، وإنما هي نبوة. وبعد هذا دخل أبو سفيان على النبي بعد أن صار في حال أخرى غير الحال التي جاء بها. ثم حين يدخل النبي مكة بعدئذ يقول: ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن.

وهذا يجعلنا نسأل الآن الدعاة والشباب المسلمين: كم واحدا يعرف شخصية قائد الشرطة في حيه، أو المحافظ، أو ناظر المدرسة، أو عميد الكلية، أو عمدة القرية؟ كم واحدا يفهم الشخصيات النافذة في بلده ومكانه إلى الدرجة التي يستطيع فيها أن يتعامل معه وينجح في ذلك؟!

هذا هو الدين، وليس الفهم السطحي البسيط الذي يفهمه المسكين الذي يظن نفسه داعية حين يذهب إلى أحدهم فيجبهه بالكلام ويقول: "أُقيم عليه الحجة"، لقد رأيت مرة من يذهب إلى عمدة القرية ويقول له: "قل لا إله إلا الله لأنك تركت الإسلام"، فكان من الطبيعي أن يرد عليه الرجل بقوله: هل ستعلمني الإسلام؟!" ويطرده ولا يقبل منه.

يجب علينا أن نحسن التأسي برسول الله ﷺ، فلم يكن النبي ﷺ شخصا عاديا، بل كان يفقه ما يفعل وما يقول.

ولم تكن هذه الكفاءة السياسية مع عدوه فقط، بل مع صحابته كذلك، لقد كان النبي ﷺ يدير مجتمع المدينة، وهو مجتمع معقد ومُرهِق:

فهو منقسم بين الأوس والخزرج، وهما قبيلتان كانت بينهما عداوة ضاربة في التاريخ وقتلى، وكان الرجل من الأوس يعرف الرجل من الخزرج ويتذكر أن أبا هذا قتل عمه، وخال هذا قتل أباه، وأخا هذا ضرب أمه.. وهكذا! أي أن الرجل كان حين يرى الآخر يراه متلبسا بدماء أهله التي سالت على يد هذا ويد قبيلته.

ثم هم مع ذلك يعيش بينهم اليهود، وهؤلاء اليهود هم الذين كانوا يؤججون العداوة والبغضاء بينهم، إذ إن مصلحة اليهود في بقاء العداوة مشتعلة بين الأوس والخزرج.

ثم يُضاف إلى هذه التركيبة القبلية الصعبة: المهاجرون، والمهاجرون أيضا كانوا منقسمين إلى قبائل، وقد كان بين هذه القبائل تنافس شديد، يدل على هذا قول أبي جهل: كنا وبنو عبد مناف كفرسي رهان: أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فأنى لنا هذا؟!، فهذه هي القبائل التي جاء منها المهاجرون كان بينها حالة من التنافس الشديد. ثم ينزل الأمر الإلهي ليجعل من هؤلاء جسدا واحدا {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [الأنبياء: ٩٢]، فكيف تمكن النبي ﷺ أن يجعل كل هذا بين يديه كرئيس للدولة؟!

وهذا يجعلنا نسأل الآن الدعاة والشباب المسلمين: كم واحدا يعرف شخصية قائد الشرطة في حيه، أو المحافظ، أو ناظر المدرسة، أو عميد الكلية، أو عمدة القرية؟ كم واحدا يفهم الشخصيات النافذة في بلده ومكانه إلى الدرجة التي يستطيع فيها أن يتعامل معه وينجح في ذلك؟!

هذا هو الدين، وليس الفهم السطحي البسيط الذي يفهمه المسكين الذي يظن نفسه داعية حين يذهب إلى أحدهم فيجبهه بالكلام ويقول: "أُقيم عليه الحجة"، لقد رأيت مرة من يذهب إلى عمدة القرية ويقول له: "قل لا إله إلا الله لأنك تركت الإسلام"، فكان من الطبيعي أن يرد عليه الرجل بقوله: هل ستعلمني الإسلام؟!" ويطرده ولا يقبل منه.

يجب علينا أن نحسن التأسي برسول الله ﷺ، فلم يكن النبي ﷺ شخصا عاديا، بل كان يفقه ما يفعل وما يقول.

ولم تكن هذه الكفاءة السياسية مع عدوه فقط، بل مع صحابته كذلك، لقد كان النبي ﷺ يدير مجتمع المدينة، وهو مجتمع معقد ومُرهِق:

فهو منقسم بين الأوس والخزرج، وهما قبيلتان كانت بينهما عداوة ضاربة في التاريخ وقتلى، وكان الرجل من الأوس يعرف الرجل من الخزرج ويتذكر أن أبا هذا قتل عمه، وخال هذا قتل أباه، وأخا هذا ضرب أمه.. وهكذا! أي أن الرجل كان حين يرى الآخر يراه متلبسا بدماء أهله التي سالت على يد هذا ويد قبيلته.

ثم هم مع ذلك يعيش بينهم اليهود، وهؤلاء اليهود هم الذين كانوا يؤججون العداوة والبغضاء بينهم، إذ إن مصلحة اليهود في بقاء العداوة مشتعلة بين الأوس والخزرج.

ثم يُضاف إلى هذه التركيبة القبلية الصعبة: المهاجرون، والمهاجرون أيضا كانوا منقسمين إلى قبائل، وقد كان بين هذه القبائل تنافس شديد، يدل على هذا قول أبي جهل: كنا وبنو عبد مناف كفرسي رهان: أطعموا فأطعمنا وسقوا فسقينا حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء فأنى لنا هذا؟، فهذه هي القبائل التي جاء منها المهاجرون كان بينها حالة من التنافس الشديد. ثم ينزل الأمر الإلهي ليجعل من هؤلاء جسدا واحدا {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [الأنبياء: ٩٢]، فكيف تمكن النبي ﷺ أن يجعل كل هذا بين يديه كرئيس للدولة؟!

لقد بدا هذا أول مرة في غزوة بدر، حين أفلت العير وصارت المسألة حربا، فقال لهم: أشيروا علي أيها الناس، فيقوم أبو بكر ويتكلم، فيقول النبيﷺ: أشيروا علي أيها الناس، فيقوم عمر بن الخطاب ويتكلم، فيقول مرة أخرى: أشيروا علي أيها الناس [٢] .

وفيما بعد، أخرج النبي ﷺ من المدينة بني قينقاع -وهم فرع من اليهود- وبني قريظة، ولكنّ كلا منهما خرج على نحوٍ لا يشبه الآخر، فأما بنو قينقاع فخرجوا ولهم الحق في أن يخرج الواحد منهم بأهله وما يستطيع أن يحمله من ماله ومتاعه، ومالم يستطع حمله فهو للمسلمين. لأن العقوبة كانت: الجلاء عن المدينة فحسب. وقد كان بنو قينقاع هؤلاء في الجاهلية حلفاءً للخزرج.

وأما بنو قريظة فقد نقضوا العهد في وقت غزوة الأحزاب، فحاصرهم النبي ﷺ حتى نزلوا على حكمه فأسرهم جميعًا وأصبحوا تحت يديه، وهو الآن يوشك أن يحكم في هؤلاء الخائنين.

لكن هؤلاء كانوا في الجاهلية حلفاء للأوس، وهنا قد يسري في أوساط الأوس قول يقول: ترى ماذا سيفعل في حلفائنا؟ هل ستكون عقوبتهم كعقوبة حلفاء الخزرج؟ أم لأن الخزرج أكثر عددا فسيكون لحلفائهم ما لا يكون لحلفائنا؟ وقد تسري رغبة تقول: فليكن لهم ذات العقوبة التي كانت لحلفاء الخزرج، فلا يكون لأحد علو على أحد.

انظر إلى رسول الله ﷺ، الرفيق السمح السهل، لم يواجه هذه الرغبة بالغلظة ولا بالعنف ولا بالقول: أنا صاحب الحكم وهذا وحي من عند الله فلا شأن لأحد به، بل انظر كيف وازن النبيﷺ بين الأمرين؛ الأول: أنه لا يلين في الحق، وهؤلاء وجبت عليهم عقوبة الخيانة، فما كان له أن يعفو عنهم لأجل خاطر لأحد، والثاني: أنه يعرف أصحابه جيدا، ويعرف ما قد يدور في صدورهم، وحرج الموقف الذي هو من الرواسب القديمة للتنافس بين الأوس والخزرج. فماذا فعل؟

---

(٢) هنا انقطاع في التسجيل، ولكن يُتوقع أن الشيخ مضى ليذكر أن النبي لم يكتف برأي المهاجرين وإنما اهتم برأي الأنصار ليكونوا هم من أصحاب القرار وصناعه، وأنهم مع المهاجرين أمة واحدة لا يستأثر المهاجرون دونهم بشيء وليسوا حكاما عليهم بل إخوانا لهم وشركاء في ما ينزل بهم.

لقد ترك ﷺ الحكم في المسألة، وجعل الحكم في هؤلاء لهم أنفسهم، فقال لهم: أما ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم: سعد بن معاذ؟ وسعد هو زعيم الأوس أنفسهم، قالوا: بلى يا رسول الله، رضينا. وبهذا حُلَّت المسألة عندهم لأن الحكم فيهم صار لزعيمهم نفسه، وهو أكثر من يمكن أن تلحقه "الإهانة" من أن يُعاقَب حلفاؤه بأكثر مما عوقب به حلفاء الخزرج. فلما جاء سعد بن معاذ صار بعض الناس يهمس إليه: أحسن في مواليك يا أبا عبد الله.. أحسن في مواليك يا أبا عبد الله، فقال سعد -وكان جَهْوَري الصوت- "لقد آن لسعد بن معاذ ألا تأخذه في الله لومة لائم"، ثم قال: يا رسول الله، دعوتني لأحكم في هؤلاء؟ قال: نعم. قال: أحكم فيهم أن يقتّل رجالهم، وأن تُسبى نساؤهم وذراريهم، وأن تكون أموالهم غنيمة للمسلمين لقاءَ أو جزاء ما خانوا المسلمين في حرب بين الله ورسوله وعدوهم"، فسعد النبي -هذا الكفء العظيم- وقال له "أما لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات". وبهذا انتهت المشكلة دون أن يستشعر الأوس حرجا أو غضبا، بل خرجوا وهم يفتخرون بأن حكم سيدهم وافق حكم الله من فوق سبع سماوات!

إن الأمور لا تجري بالدروشة والتواكل وأخذ الأمور على عواهنها، لا! بل كان النبي شخصية فقيهة فاهمة مدركة للأوضاع والظروف.

الكفاءة الاجتماعية

كيف كان النبيﷺ يرفع الحرج عن أصحابه أو يؤلف بينهم؟

إن السيرة حافلة بالمشكلات التي استطاع النبي ﷺأن يحتويها، مثلما قال الأنصار مرة بعد غزوة حنين: "وجد رسول اللهﷺ أهله"، لكن لا بأس بذكر واقعة فردية لكي لا نخلط بين الكفاءة السياسية والكفاءة الاجتماعية.

بينما كان الرسول ﷺ جالسا بين أصحابه، إذ انتقض وضوء واحد منهم، وكان هؤلاء الجالسون جميعا قد أكلوا لحم جزور (جَمَل)، وهنا وقع الرجل في حرج، فلقد أوشكت الصلاة، ولئن قام يتوضأ فسيُعرف أنه هو (الذي خرج منه ريح)، وهو إذا لم يقم فلن يستطيع الصلاة، ولئن صلى فلقد خان الله ورسوله لصلاته بغير وضوء.

ماذا فعل رسول الله ﷺ لرفع الحرج عنه؟

لقد أقام ﷺ كل الجالسِين ليتوضأوا، وقال: "من أكل لحم جزور فليتوضأ"، فقام الناس جميعا للوضوء فرفع الحرج عن الرجل.

وكانت له أمورٌ عجيبة في مواساة الناس، حتى عند الموت وحال بكاء الأهل على صاحبهم، وأنقذ قريشا من الاقتتال في مسألة الحجر الأسود قبل بعثته حين كان عمره ٣٥ سنة، ورفض أن يسابق قافلة من القوافل فيسبق بالتجارة ثم كان أربح منها بكثير.

الكفاءة العسكرية

كذلك تتجلى كفاءته العسكرية في أمور كثيرة، منها أنه كان يعرف عدد الجيش من عدد الذبائح التي يذبحها يوميا، ويعرف نوع الإبل وقبيلتها من روث هذه الإبل، ويعرف إن كانت هذه الإبل جيشا أم قافلة، على تفصيل كثير.

لم يكن شخصية خامدة ولا خاملة، بل شخصية مدركة..

كيف استطاع في غزوة الأحزاب أن يستفيد بواقعة إسلام مسلم جديد هو نعيم بن مسعود، الذي لما حضر إلى النبي ﷺ قال له النبي ﷺ "إنما أنت فينا رجل" أي: لن تزيدنا ولن تؤثر، لكنك لست معروفا بالإسلام "فخذّل عنا ما استطعت"، فيذهب إلى اليهود وإلى الأحزاب حزبا حزبا حتى استطاع نعيم بن مسعود وحده -بهذه الخطة التي وجهه إليها النبي- أن يصنع خدعة -والحرب خدعة- شتت بها الأحزاب في أرض الجزيرة العربية في الصحراء، فلو أنك نظرت إلى هذه الأحزاب المجتمعة في حصار المدينة بعد عشرة أيام من إرسال النبي لنعيم بن مسعود لوجدتهم متناثرين في جزيرة العرب، فهذا هنا وهذا هناك وهؤلاء بينهم وبين بعضهم نِزاع واليهود قد صاروا في قبضته وانتهت المحنة!

كيف استطاع ﷺ أن يفعل هذا؟ ذلك أنه يعرف اليهود جيدا، ويعرف القبائل جيدا، ويعرف شخصيات زعمائها، ويعرف كيف يدير الحرب.

وهو مع ذلك في منتهى الصدق.. ويبدو هذا كأوضح ما يكون في قصة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فلقد كان ممن أسلم ثم ارتدَّ فلما فتح النبي مكة أعلن أنه ضمن من يُقتلوا إذا عثر عليهم

حتى لو تعلق بأستار الكعبة، لكن الرجل كان أخا لعثمان بن عفان في الرضاعة فلما جلس النبي لأخذ البيعة ممن أسلم من أهل مكة، جاء عثمان به ليسلم رجاء أن يعفو عنه رسول اللهﷺ، فلما أقل عليه صار النبي ﷺ يشيح بوجهه عنه ولا يكلمه، فظل عبد الله بن سعد يأتيه من اليمين والشمال والنبي يشيح عنه، حتى قبل النبي منه وبايعه. ثم أقبل النبي ﷺ على أصحابه فقال: "أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآني كففت يدي عن بيعته فيقتله؟"، قالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأت إلينا بعينك؟، قال: "إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين".

كان ﷺ صادقا، ولا يقبل الأسلوب المائع أو الملتوي، لكنه في ذات الوقت ليس الساذج الذي يُخدع بل هو كما قيل: لست بالخِب ولا الخب يخدعني.

فإذا كان رسول الله ﷺ بكفاءته قد استطاع تشتيت شمل هذه الأحزاب المجرمة وهذه العصابات الآثمة التي اجتمعت عليه من الشرق والغرب لقتل الإسلام والقضاء عليه، فيستطيع بكفاءة الرئيس والقائد والزعيم أن يجعلهم في أيام متناثرين في جزيرة العرب، قد عادوا فئات مشرذمة.. إذا كان رسول الله ﷺ استطاع هذا بكفاءته فليس معنى هذا أنه مخادع، بل على العكس، إذ عندما كان الأمر يتعلق بشخص واحد لم يرض أن تكون له خائنة أعين.

إنها شخصية مكتملة الاستقامة، ليست ساذجة ولا خاملة، ليس ضعيفا، وإنما تمتلئ عمقا وفقها وثقافة وإدراكا وعلما وكفاءة، وهذه هي الشخصية مكتملة الكفاءة وفيها الخصائص والملكات المطلوبة: صبور، قوي، محبوب، محبب إلى الناس، فيه الخلق القويم، وفيه العبادة الصافية الصحيحة، عابد، على خلق عظيم، على كفاءة عالية سامية.

هذه هي شخصية رسول الله التي جمعت المتقابلات، تجد لديه الشجاعة والحياء، عنده الهيبة التي يرتعش لها من يلقاه وعنده التواضع الجم، وهكذا.

حكمة الداعية

لعله يبدو الآن من هذا الكلام السابق أن النبي ﷺ شخصية وافرة الدقة عظيمة التنظيم إلى الحد الذي لا يكون فيه للاعتبارات الأخرى أي مجال.. وهذه أيضا صورة منقوصة وغير صحيحة، ذلك أن النبي كان صاحب حكمة تُغري بالتوقف عندها.

لقد تحدثنا عن أخلاقه العليا ﷺ ثم عن كفاءته الكاملة كي لا يتوهم أحد أن سمو الأخلاق يذهب بالكفاءة، ثم تحدثنا عن كفاءته إلى حدٍّ ربما يستجلب الخوف والخشية من هذه الشخصية صاحب القوى العقلية، والآن نتحدث عن حكمته لنرى كيف أن هذه الحكمة كانت تُرطِّب الأمور وتخرجها أحسن مخرج.

فمن العجيب أنه، وهو الذي منع النساء من اتباع الجنائز صارخات، وجد يوما امرأة تسير خلف جنازة زوجها صارخة نادبة، فلم ينهها، وإنما حاول أن يصبرها ويواسيها، فصاحت في وجهه -ولم تكن تعرفه- وقالت: "إليك عني يا هذا، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتي"، ثم قيل لها هذا رسول الله ﷺ، فقامت المرأة جزعة على عقيدتها أن تكون قد أساءت إلى الرسول ﷺ وأسرعت وراءه تعتذر إليه، وأنها لم تكن تعرفه. فترك إساءتها إليه، وترك لهفتها على أنها أساءت إليه وهو رسول الله ﷺ، وأراد -في هذه اللحظة التي هي مفتحة الحواس فيها ومنتبهة إلى قوله وترتقبه- أن يعود بها إلى القضية الأولى، فقال: "إنما الصبر عند الصدمة الأولى"، أي أن هذا هو وقت الصبر، وأدى إليها هذا المعنى في لحظة انتباهتها وترقبها.

وذات مرة رأى امرأة أخرى تصرخ وتندب خلف جنازة، فأقبل عليها عمر بن الخطاب يُعنِّفها، فقال له النبي "دعها يا عمر، فإن المصاب جلل والخطب قريب". فبرغم أنه النبي ﷺ الذي نهى عن سير النساء خلف الجنازة، إلا أنه نهى عن أسلوب الشدة، وإنما يحتاج الأمر إلى حكمة من الداعية.

لقد كانت حكمة النبي ﷺ حاضرة دائما في تحركه، ولنضرب مثالا على هذا بقصة الكعبة..

إن الكعبة بناء صغير، غرفة مسقوفة، وفي إحدى جهاتها بناء صغير على هيئة نصف دائرة يسمى "حجر إسماعيل" -وهو المكان الذي حُضن فيه إسماعيل عليه السلام- وهذا الجزء هو جزء من الكعبة، وكانت الكعبة قديما تشمله.. فكيف ولماذا صغرت الكعبة عن حجمها الأصلي؟

كان ذلك عندما أعاد العرب بناء الكعبة، وكانوا يعظمونها، فاشترطوا على أنفسهم ألا يدخلوا في بنائها مالا حراما، فلا يدخل فيه مالُ ربا أو من تجارة الخمر أو من تجارة الدعارة أو مالُ مغصوب أو مسروق. وتأمل هنا كيف يشهد الناس على أنفسهم ويعترفون بانتشار الحرام في أموالهم: من السرقة والغصب والربا والخمر والزنا، ويتواصون ألا يدخل هذا الحرام في بناء الكعبة!! وتأمل أيضا في هذا المجتمع المنهزم من داخله، هذا المجتمع الذي سيواجه بعد أعوام دعوة محمد وهم يعرفون

أنهم على الباطل. تأمل في صورة مجتمع يوجِّه القول لصاحب بيوت الزنا: لا تُدخل في الكعبة شيئًا من مال هذه البيوت، أو يقول لآخر: لا تدخل شيئًا من المال الذي سرقته في الكعبة، أو يقول لآخر: لا تدخل مال الخمر في الكعبة!!

ثم تأمل كيف أن كل هؤلاء العرب لم يستطيعوا بأموالهم الحلال أن يبنوا بناء بسيطا مثل الكعبة، إن كل أموالهم الحلال لم تكفِ لإكمال بنائها بمجرد الحجر من غير زينة ولا زخرفة ولا أثاث، فاضطروا إلى أن يأخذوا من مساحة الكعبة، ثم جعلوا حدا وحيزا على هذا المكان الذي هو"حجر إسماعيل".

واستقر بناء الكعبة على هذا الحال، وكان متوقعا أن يكون أول ما يفعله النبي ﷺ أن يعيد بناء الكعبة على وضعها الأصيل، على قواعد إبراهيم، فهل فعل؟!

لقد ظل النبي ﷺ في مكة ١٣ عاما في شدة واضطهاد، ثم ظل ثماني سنوات ممنوعا من زيارة الكعبة، ولم يرها إلا ثلاثة أيام أثناء عمرة القضاء (في العام السابع للهجرة)، تطبيقا لصلح الحديبية، وكانت قريش قد أخلت مكة وخرج رجالها على رؤوس الجبال ينتظرون خروجه، وفي هذه العمرة طاف النبي ﷺ بالكعبة وما يزال حولها ثلاثمائة وستون صنما، ثم فتح مكة في العام الثامن للهجرة (أي بعد واحد وعشرين سنة من البعثة) فحطم الأصنام ولكنّه لم يُعِد بناء الكعبة، ولم يبق إلا عامان على وفاته، فأرسل أبا بكر أميرًا على الحج في العام الأول ليمنع أن يطوف بالبيت مشرك أو عريان، وحجَّ مرة وحيدة في حياته، قبل وفاته ﷺ بثلاثة أشهر، فلما طاف بالكعبة كانت الكعبة على هيئتها ذاتها، وكان يستطيع معه عشرة آلاف أن يهدمها ويبنيها على قواعد إبراهيم.

ولو تَصَوَّر أحدنا نفسه داخلا بعد كل هذه السنين، وقد استطعنا أن نقهر أعداءنا وأن نتمكن من الأمر، ونحن نهتف {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: ٨١] لما تردد في أن يفعل هذا.

لكنه إنما يعلم أنه دخل على قوم -وإن كانوا قد أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجا- إلا أنهم ما يزالون بعد حديثو عهد بالإسلام، حديثو عهد بجاهلية، فقال لعائشة: "لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لهَدَمتُ الكعبة وبنيتها على قواعد إبراهيم"، فانظر كيف هدم الأصنام ومنع أن يطوف بالكعبة عريان وكيف كان يستطيع أن يهدم الكعبة ويعيد بنائها، لكنه فعل الأولى والثانية ولم يفعل الثالثة لأن ثمة شيئا في الدين وفي الدعوة الإسلامية -وفي خطها وسيرها- اسمه الحكمة.

الحكمة التي راعى بها قلوب الناس، حتى بعد أن تمكّن منهم وانتصر عليهم، لأن القلوب قد تتغير وتهتز لهذا الأمر.

الحكمة التي جمعت له الناس تحت جناحه، وهو الذي بدأ دعوته وهو يُضرب بالحجارة وتُرمى عليه القاذورات والأوساخ، فانتهى والناس جميعا لا تعامله، بل لا تكلمه ولا تخاطبه خطاب الناس بعضهم لبعض.

ولو استطردنا فتحدثنا عن مواقفه ﷺ مع حاطب بن أبي بلتعة، ومع أبي سفيان، ومع عكرمة بن أبي جهل، بل ومع عبد الله بن أُبي ابن سلول -رأس النفاق- إذ يقول فيه: "لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ولكن نُحسن صحبته ما صاحبنا"، وغيرها.. لأدركنا كيف كان هذا النبي يزن الأمور بحكمة وعقل لا تغلبه بسبب الكفاءة.

إنه ﷺ رجل كفء في الجانب العسكري، نجح وانتصر، لكن ثمة نضج وعقل وحكمة في تصرف يستطيع المسلم به أن يصل بالأمور إلى منتهاها. ونحن إذ وقفنا مع كفاءته وخلقه فكان لا بد أن نقف أيضا مع موفور عقله وحكمته، فندرك كيف كان ذا حكمة وكيف كان ذا عقل بالغ!

الخُلُق مادة الإسلام وقوام الدعوة

ولا ينبغي أن يشغلنا هذا كله عن الخلق الذي تميز به محمد ﷺ، والذي قال الله فيه وهو يخاطبه {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: ٤]، فإن مادة الإسلام تذوب جميعا في الخلق، فجوهر الإسلام -بعد العقيدة- هو الخلق؛ تذوب فيه العقيدة والشريعة، هو القوام الذي يحتوي كل هذا.

وانظر وتأمل في قول الله تعالى {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَو كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: ١٥٩]، فكأنه سبحانه وتعالى يقول: مهما كان الدين دين الله، وكان الذي يتحدث به هو سيد خلق الله رسول الله ﷺ، والكتاب كتاب الله، والكلام كلام الله، والعباد عباد الله، والأرض أرض الله.. مهما اجتمع ذلك كله فإنك لو {كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ}.

فلا سلامة العقيدة، ولا كونها دين الله، ولا كونها مرسلة مع رسول الله ﷺ.. إلخ، بعاصمة من تفرق الناس عن الدين إذا لم يكن الخلق حسنا.

ولذلك، فأحيانا ما يقابل المرء إنسانا يظهر منه حسن الحال، ويراه الناس هكذا ويثنون عليه، لكن يبقى في الصدر حرج منه، لا تستطيع أن تطمئن إليه أو أن تضعه في المنزلة العالية التي يبدو أنه مستحق لها، مع أنك إذا نظرت إلى علاقاته مع أصحابه وإخوانه تجدها ممتازة. ثم أدركت لماذا.

إن المحكَّ الحقيقي لمعرفة الإنسان هو أن تراقبه وتختبر علاقاته مع من يخالفهم ويشاجرهم وإن كانوا على الباطل، سينكشف لك عادة أنه ضعيف الخلق، فتراه بذيئا، أو عنيفا، تراه إذا خاصم فجرا! فتدرك ساعتها أن ما يظهر عليه من حُسْن الخلق ليس لأنه حَسَن الخلق، وإنما لأنك تراه في الموضع الذي على هواه، في البيئة التي تريحه، أو أنه في بيئته تلك يتصنع حسن الخلق لما يجد نفسه فيه من حرج أو خجل أو اضطرار. لكن اختبار حسن الخلق يظهر حين يختبر في الخلاف. ولهذا قال النبي في آيات المنافق: "إذا خاصم فجر"، وكأنه يقول: إذا وادَّ (أي: وادد، كانت فيه مودة) فهو لطيف وظريف.

لقد كانت تُنظِّف مسجد رسول الله ﷺ امرأةٌ عجوز سوداء، سفعاء الخدين، نحيفة، وذات يوم سأل النبي: أين فلانة؟ فقالوا: ماتت بالأمس ودفنَّاها".

إنها امرأة فقيرة، لا مال ولا جمال، لا تُذْكَر، ولا يَنتبه لها أحد، ثم هي يوم تغيب تلفت نظر النبي، لأنه لا يهتم لكبار القوم فحسب.

وهنا ينبغي أن ننتبه، فأنت إذا كنت -مثلا- مدير شركة، أو وزيرا، أو موظفا كبيرا .. إلخ، هؤلاء الذين يُقدَّر وقتهم بالقيمة والمال، ثم جاءك من يقول لك: أريدك في موضوع مهم للغاية، حالة عزاء ضرورية! فتسأله: من؟ فيقول: من يكنس الشارع، أو قال: ذلك الشحاذ المتسول على أول الطريق، فالمتوقع أن ترد مستنكرا: يا رجل، أأترك عملي لهذا؟!

وقد كانت المرأة هكذا، كانت لا أحد لها، وقد ماتت ودفنت، أي أنه قد انتهى الأمر.

وإذا برسول الله ﷺ يغضب ويقول: فهلّا آذنتموني؟ دلوني على قبرها. ومشى النبي إلى قبرها في أطراف المدينة، فصلى على قبرها ودعا لها، وظل واقفا عنده وقتا لا يقفه عند قبر آخر حتى ينصرف.

هذا هو النبي ﷺ المُكلَّف بمجاهدة الكفار والمنافقين، والحكم بما أنزل الله، والبلاغ برسالة الله.. إذا به يقف على قبر امرأة سوداء، ضعيفة، سفعاء الخدين، تكنس، لا يُؤبه لها ولا يُلتفت إليها، وماتت ودُفِنَتْ وانتهت المناسبة!! فهكذا كان الخلق عنده.

من المؤسف أنّ أحدَنا إذا كان الميت بسيط الحال لم يذهب، أو لم يذهب بنفسه وأرسل ولده بدلا منه، أو اكتفى ببرقية، فلماذا يا أخي؟ لماذا وهذا رسول الله ﷺ وهو أرفع الناس قد علّمنا وهدانا وأعطانا هذا النموذج وهذه القدوة.

إنها الرحمة التي فُطر عليها وأُودعت قلبه، وهي أمر لا شرط عليه، فليس لأحد أن يقول: سأرحم الناس حين أصير غنيا، بل قال الله تعالى في الحديث القُدْسي: "إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتي، ولم يستطل على خلقي، ولم يكن مصرًّا على معصيتي، وقطع نهاره في ذكري، ورحم الأرملة والمسكين وابن السبيل، ورحم المصاب".

ومن المنكر في أيامنا هذه ألا يقف المرء لمصابٍ صدمته سيارة -مثلا- فيسعفه أو يحمله إلى المستشفى لخشيته من أن يتورط في أمره، هذا غياب للرحمة، ومن لا يَرحم لا يُرحم، إنما يرحم الله من عباده الرحماء. بل احمله إلى المستشفى واعتن لحاله رحمة منك، ثم لتنظر في شأن المشكلة -إن كان ثمة مشكلة- أما أن تبيع الآخرة -التي ثمنها هذه الرحمة- لتشتري سلامة ليلة فهذا ما لا يُقبل! ثم -وعلى أسوأ الفروض- أن قد أصابك في هذا بلاء، فما أيسره إذا كانت الجنة في المقابل.

انتبهوا، واجعلوا رقابة الله علينا أعظم من رقابة أي شيء، فإن أراد الله منك أن ترحم المصاب فلترحم المصاب، وهكذا كانت رحمة النبي ﷺ.

ومما يلفت النظر في أخلاق النبي ﷺ أنه كان يثير ويبتكر أمورا ليسعد بها من حوله، أو ليكفيهم نوع مشقة أو ليرفع عنهم حرجا. فقد استأذنت السيدة عائشة يوما لحضور زواج فتاة من الأنصار، فلما عادت -وهي سعيدة ولم يشعر أحد بنقص- ابتدأها رسول الله بقوله: ماذا كان معهم من لهو؟ فإن الأنصار قومٌ يعجبهم اللهو. فقالت: يا رسول الله ﷺ، ما فعلنا شيئًا، وماذا كنّا نفعل؟ فقال لها: هلّا بعثتم معها من يغنّي لها؟ فقالت له: يا رسول الله ﷺ، ماذا كنّا نقول؟ فإذا به يقول لها: كنتم تقولون:

أتيناكـــم أتينـــاكم .. فحيّونـــا نحييكـــم
ولولا الحنطة السمراء .. ما سَمِنَت عذاريكم
ولــولا الذهب الأصفـر .. مـا حـلّت بواديكم
أتينـــاكم أتينـــاكم .. فحيانـــا وحيّاكـــم

إن إسعاد العروسين بزواجهما مطلب شرعي، ولا علاقة لهذا بما يُرتكب من مخالفات كالاختلاط والعبارات غير المنضبطة شرعا أو وجود الموسيقى التي يرى جمهور العلماء فيها رأيهم.. إلخ.

ولا يعني هذا أن يتمسك الإخوة بهذه الأغنية وحدها، إنما هي اقتراح منه ﷺ مثالا، وإنما السنة في الأفراح أن تؤلفوا الأناشيد والأغاني ذات المعاني البسيطة المُسْعِدة الحُلوة، وباللغة العامية كي يفرح الناس ويتجاوبون معها.

لكن العجب أن النبي ﷺ هو الذي يُثير الأمر ابتداءً بغير داعٍ إليه، فلم يكن هذا نتيجة لنزاع أو اختلاف رأي حول الغناء أو الفرح فتدخل النبي لحل الإشكال، وإنما ابتدأ هو بما يُسعد الناس ويسرّهم ويفرّحهم.

ولما تزوج صحابي قال له النبي ﷺ "هلّا بِكْرًا تلاعبها وتلاعبك؟"، فهو هنا يثير الأمر ابتداءً، أمر الخفة والملاعبة والبساطة في الحياة الزوجية، يُثيرها ابتداءً والناس غافلة عنها. يثيرها بهذه البساطة، فمن الحسن أن تُشيع السعادة في الناس، ولما تكلم عن الابتسام كان يقول ﷺ: "تبسّمك في وجه أخيك صدقة"، فهذا الفقير الذي لا يجد ما يتصدق به ماذا يفعل؟ فليتبسم، فتصبح وجوه المسلمين وجوه بِشْر.

ومن القصص العجيب أن النبي ﷺ وبينما هو جالس بين أصحابه، ولعله وقتها كان يحدثهم في العقيدة أو الفقه أو العبادة، دخل عليه صحابي يلبس عمته، ولكن يبدو أنه كان متعجلا فلم يحكم ربطها، فناداه النبي فأجلسه أمامه ثم حلَّ العمامة وربطها بإحكام وأسدل له ثم قال: "هكذا فاعتمّ". ويمكن أن نقيس هذا على "ربطة الكرافتة" في عصرنا الآن، لكن المقصود هو: كيف يتحبب إلى أصحابه ويشرح لهم كيف يكون هندامهم. وأما الرجل ففرح بهذا أيَّما فرح ونوى ألا يحلها مرة أخرى بل تبقى هكذا تبركا برسول الله.

أنا لم أفعل هذا من قبل، ولا أدري لماذا؟ ربما فعلتها منذ زمن لابن أخي أو ابن أختي، لقريب لي لكن ليس لواحد من عموم المجتمع كي أدخل عليه سعادة ومحبة وبشر وسرور وبهجة، وهؤلاء هم من يسألون: لم يغيب الإخاء عن دنيا المسلمين اليوم؟

ذلك أنهم منشغلون بالأمور الجافة، الفقه يقول كذا، والنقاشات بعد الصلوات فقهية، وتختفي المحبة والمودة والحديث الحُلو الذي تأنس له القلوب؟

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يتحبب الناس تحببهم بهذه الصورة، يُدخل أمورا تُسعد ابتداءً دون أن تكون مثارة:

ذات مرة كان ﷺ جالسا بين أصحابه، فكان إذا أتى واحد رحب به وأجلسه على يمينه، ثم إذا أتى ثان أجلسه أمامه، وثالث فيلقي إليه بوسادة، وهكذا يضع القادمين فيما يليه ليسعده، حتى إذا ضاق المكان وامتلأ البساط، جاء رجل.. ترى ماذا يفعل معه النبي؟!

إنما أريد أن تتذوق القصة لا أن نعرفها لمجرد الثقافة، هذا الذي يشعر أنه زائد قد أتى بعد انتهاء المجلس، كيف يشعر؟! وكيف سيتعامل النبي مع شعوره هذا، وهو الرسول، ورئيس الدولة، والقائد، فكل من حوله أقل منه، وفضله عليهم لا يُنكر، فهو خير خلق الله على الإطلاق.

لقد خلع رسول الله ﷺ عباءته وألقاها إليه وقال له: اجلس على هذه!!

أأجلس على عباءة الرسول صلى الله عليه وسلم؟! أبسطها على الأرض؟!

فطفرت دمعتان من عينيّ الرجل، وجمع العباءة وقبّلها، وذهب بها إلى سيد خلق الله يقول له: أكرمك الله كما أكرمتني يا رسول الله.

ترى كيف بلغ هذا من قلب الرجل؟!
إنه يريد لمن حوله أن يحيا فرِحا سعيدا، حتى لو لم تكن السعادة موجودة بينه وبينهم فإنه يوجدها ابتداءً.

فكانت هذه هي شخصية الرسول ﷺ

الفصل الثاني: البشارات بنبوة محمد ﷺ

كان الناس من أهل الكتاب وأصحاب العلم ينتظرون رسولا سيبعث اسمه أحمد أو محمد، يعرفون أنه رسول الله، قبل أن يعرف النبي نفسه أنه سيكون رسول الله. ونحن نقول هذا لكي نوقن أن دين الله واحد، وأن هؤلاء الذين يكفرون بالإسلام، سواءُ يهود أو نصارى، إنما ينكرون قواعدَ موجودةً في دينهم نفسه، وأنهم لما كفروا بمحمد إنما كفروا بدينهم. وهم لما حرفوا كتبهم ولما قالوا بأن القرآن ليس بكتاب لله، وأن محمدا ليس برسول لله، لما فعلوا ذلك إنما كفروا بدينهم.

ونحن عندما نتحدث نحن هنا عن السيرة لا نتحدث عن أمر يخصنا وحدنا، بل نتحدث عن أمر تحدثت عنه الأمم السابقة بمثل ما نتحدث عنه الآن.

إن الأمر كما قال الله تعالى {غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ} [الروم: ٢، ٣]، فقبل أن تقع الموقعة عرف المسلمون ما الذي سيحدث، فلما وقعت قالوا: نعم، هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله. أو كقول الله تعالى {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا .... } [الإسراء: ٤، ٥] {فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ ...} [الإسراء: ٧]، فإذا حدثت هذه الأمور نعلم أننا كنا نعرف بها من قبل أن تقع.

وكذلك السيرة، أخبر الله تعالى بشأنها أصحاب الكتب السابقة، فلما وقعت كانوا يعرفونها، ولذلك يقول القرآن الكريم عن معرفتهم للنبي ﷺ {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: ١٤٦]

ولهذا فإن سيرة النبي المصطفى ﷺ لم تبدأ منذ ولادته، إنما هي بابتدائها وانتهائها ومراحلها كانت معروفة لمن كان يقرأ الكتب السابقة: البعثة ومكانها والهجرة ومكانها ووفاته ودفنه.

أهل الكتاب

كان أهل الكتاب يستفتحون على الذين كفروا، فمن ذلك أن واحدا من أهل يثرب قتل رجلا تابعا لملك اليمن، فحرَّك هذا الملك جيشه وأقبل لقتال اليثربيين، فبينما هو كذلك إذ خرج عليه عالمان من أحبار اليهود -الذين كانوا يعيشون في المدينة- وقالا له: أيها الملك، لا تفعل، فإنك إن أبيت إلا ما تريد حيل بينك وبينها، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة، فقال لهما: ولم ذاك؟ فقالا: هي (هذه المدينة) مُهَاجَرُ نبيٍّ يخرج من هذا الحرم من قريش في آخر الزمان، تكون داره وقراره.



فأنت تفاجأ هنا أنهم كانوا يتحدثون بتحديد غريب عن رسول الله ﷺ؛ فيقولون أن رسول الله سيخرج في هذا الزمان، فنأخذ من هذا أنه رسول الله وأنه قد تحدد زمان خروجه، ثم يقولون بأن قومه سيضطهدونه وسيهاجر، فها هنا تصريح بالهجرة، ثم تكون هذه الهجرة من مكة "من هذا الحرم"، ثم حددوا قبيلته بأنها "قريش"، وحددوا مكان الهجرة "يثرب"، وعرفوا أنها ليست هجرة مؤقتة لعامين أو ثلاثة بل هي مستقر "تكون داره" وسيظل فيها طوال حياته حتى يموت، فهي "قراره" أي قبره.

فهذه العبارة على بساطتها جاءت بالسيرة من أولها إلى آخرها، فقد ذكرت: البعثة والاضطهاد والهجرة، وأهل النبي ونسبه، وموطنه ومهجره، ومدة إقامته في يثرب وأين سيموت ويدفن. فتلك هي السيرة!

فكانت صورة النبي ﷺ واضحة في أذهانهم، كانوا يدركون الأمر كله، ويعرفون أنهم ينتظرون هذا النبي. بل تبلغ درجة معرفتهم به أنهم {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: ١٤٦].

وتبدو هذه المعرفة واضحة تماما في قصة بَحِيرا الراهب، فإنها في غاية العجب..

كان النصارى ابتدعوا الرهبانية لتكون وسيلتهم إلى الله فكانوا يختارون مكانا منعزلا خاليا للعبادة وربما اختاروه على الطريق كي يلتفت الناس لأمر عبادة الله فيجد من أراد سبيل الله أناسا يأخذونه إلى هذا السبيل.

وفي صومعة على الطريق بين مكة وبُصرى -من أرض الشام- نزل راهب من رهبان النصارى، يقولون: انتهى إليه علم النصرانية، وكان أكبر الكهان في الزمان يتعاقبون عليه، ويزعمون أنه كان لهم كتاب مخطوط من كتب النبوات لا ينسخون منه غير نسخة واحدة تكون مع كبير الرهبان. وكان بَحيرا الراهب معتزلا في صومعته لا يأبه لمن يسافر أو يرجع، إلى أن جاء ذات يوم فخرج من صومعته وسعى إليهم.. فلماذا يا ترى؟

السبب أن محمدا لما بلغ الثانية عشرة من عمره لم يكن طفلا لاهيا ولا شابا عابثا وإنما أراد أن يكون قويا، وجد نفسه يتيما لا أب له ولا أم ولا جَد، وهو عند عمه الذي يكفله، وعمه هذا كثير العيال، فعزم على أن يعمل بنفسه، وألحّ على عمه أن يخرج معه في رحلة إلى الشام حتى استجاب له وخرج معه.

وهنا يجب أن نتذكر ونتنبه جيدا أن النبي لم يصل إلى الشام أبدا، ولم يغادر حدود جزيرة العرب أبدا.

وما إن عبرت القافلة بالطريق الذي عليه صومعة بَحيرا حتى غادر هذا صومعته ونزل إليهم، وهذا مصداق قول الله عز وجل {يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ} [البقرة: ١٤٦]، إذ هو لما رآه من بعيد عَرَفَه. فأنت الآن إذا نظرت من الشرفة إلى غلام بعيد في الثانية عشرة من عمره لن تعرفه حق المعرفة إلا إذا كان ابنك أو في هذه المكانة من القرب منك.

فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصُنع، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعاما يا معشر قريش، وأنا أحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم، وحُرُّكم وعبدكم، فقال له رجل منهم: يا بحيرا إن لك اليوم لشأناً، ما كنت تصنع هذا فيما مضى! وقد كنا نمر بك كثيرا فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيرا: صدقت قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاما تأكلون منه كلكم صغيركم وكبيركم، فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله من بين القوم- لحداثة سنه- في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرا في القوم لم ير الصفة التي يعرف ويجد عنده، قال: يا معشر قريش، لا يتخلف أحد منكم عن طعامي هذا، قالوا له: يا بحيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام هو أحدث القوم سنا، تخلف في رحالهم، قال: فلا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم، فقال رجل مع القوم من قريش: واللاتِ والعُزَّى إن هذا للؤم بنا، يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن الطعام من بيننا! ثم قام إليه فاحتضنه، ثم أقبل به حتى أجلسه مع القوم، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده في صفته، حتى إذا فرغ القوم من الطعام وتفرقوا قام بحيرا فقال له: يا غلام، أسألك باللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما، (أما بحيرا نفسه فلا يؤمن بهما بل يراهما أصناما) فزعموا أن رسول الله قال له: لا تسلني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، فقال له بحيرا: فبالله إلا أخبرتني عما أسألك عنه، قال: سلني عما بدا لك، فجعل يسأله عن أشياء من حاله: من نومه، وهيئته، وأموره، فجعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده، فلما فرغ منه أقبل على عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني، قال له بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، قال: فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليَبْغُنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن فأسرع به إلى بلاده، فخرج به عمه أبو طالب سريعاً حتى أقدمه مكة.

ويشاء ربك أنه بمجرد إرجاع أبي طالب لابن أخيه إلى مكة يأتي وفد إلى بحيرا من ثلاثة علماء من بني إسرائيل كانوا قد رأوا من رسول الله مثل ما رآه بحيرا في ذلك السفر، فأرادوه ليقتلوه لأنه ليس من بني إسرائيل, وهذا ليس غريبا عليهم فقد امتهن بنو إسرائيل قتل الأنبياء، فكم قتلوا من نبي وكم قتلوا من رسول!

فخشي بحيرا على النبي ﷺ منهم، فظل يُذِّكرهم بالله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدَّقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه. ولكنهم لم يؤمنوا، إنما نجح بحيرا فقط في إرجاعهم وصرفهم عن نية قتله.

وأريد أن تنتبهوا معي إلى "بُصْرى" هذه فستأتي معنا بعد قليل.

هذه الإشارات التي تحدث في الكون لم تكن بإشارات يسيرة بالنسبة لأهل الكتاب، بل كانت واضحة شديدة الوضوح، إلى درجة أنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

فمن ذلك أنه في زمن صلح الحديبية خرج تاجر إلى الشام، والشام كانت المركز الأساسي لأهل الكتاب، فمكث سنة، ثم قدم -وكان يكثر السب للنبي- فأول شيء سأل عن النبي فقيل له: هو -والله- أعز ما كان وأعلاه أمرا، فَسَكَتَ ولم يسبه كما كان يسبه، ثم قال لأقاربه: إني كنت بقرية فرأيت بها راهبا يقال له بكا لم ينزل إلى الأرض أربعين سنة، وذلك ليتفرغ للطاعة الخالصة من مخالطة الناس، ولأنه عرف أن الزمان زمان جاهلية وفتن، يقول الرجل: فنزل يوما فاجتمعوا ينظرون إليه، فجئت فقلت: إن لي حاجة، فخلا بي. فقلت: إني من قريش وإن رجلا منا خرج يزعم أن الله أرسله. قال: ما اسمه؟ قلت: محمد. قال: منذ كم خرج؟ قلت: عشرين سنة. قال: ألا أصفه لك؟ قلت: بلى. فوصفه فما أخطأ من صفته شيئا، ثم قال لي: هو -والله- نبي هذه الأمة، والله ليظهرن. ثم دخل صومعته وقال لي اقرأ عليه السلام.

وهنا تأمل في هذا الذي جاء يسأل عن نبي بُعث من عشرين سنة، فالمتوقع أن يقول: صِفْه لي، لا أن يقول: ألا أصفه أنا لك؟

العجيب في هذا الأمر أن لا أكون رأيتك ولا جلست إليك ثم أستطيع أن أصف صفاتك وأحوالك بدقة، السمت والكلام ومسيرته في الحياة. فإذا استطعتُ أن أصف ذلك بدقة فلا بد أن يكون هذا الذي عندي هو علم موثق راسخ.

إنما نقول هذا لنمهد للحديث عن وحدة الدين الذي أنزله الله، ووحدة السيرة التي نتحدث فيها، لا يختلف سابقها عن لاحقها أبدا، وإنما هي دين الله -عز وجل- الواحد الذي ينظم هؤلاء جميعا.

وهذا ورقةُ بنُ نَوْفَل، وليس صحيحا ما يظنه البعض من أنه سمع عن رسول الله لما بعث وذهبت إليه خديجة، لا.. لم يكن الأمر كذلك.

إن ورقة بن نوفل رجل قرأ دين الله، وتعلم فيه أن الأوثان باطل، فانتقل من الدين الذي عليه الكافرون الوثنيون إلى دين أهل الكتاب يعبد الله الواحد الذي لا شريك له، وقرأ في كتب أهل الكتاب، وكان يعرف اللغة العِبرانية التي كتبت بها كتابات اليهود والنصارى في الدين، فقرأ وعرف، وذات يوم زارته خديجة -وهي ابنة عمه- فذكرت له أنها عيَّنت "مديرا جديدا" لتجارتها التي تذهب إلى الشام، هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنها أرسلت معه غلامها ميسرة ليستوثق ويطمئن لأمر التجارة معه، ولكنّ ميسرة أتاها بأخبار غريبة كالغمامة التي تظلله أو الملكين أو ما سوى ذلك، وما يزال يصل إلى ورقة خبر بعد خبر حتى امتلأت نفسه به، وقال لها: "لئن كان هذا حقا يا خديجة، إن محمدا لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي يُنتظر، هذا زمانه"، وروي عنه شعر يعبر عن تشوقه هذا الذي كان يكتمه في نفسه ولا يُصرّح به، يقول:

لججت وكنت في الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصفٌ من خديجةَ بعد وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطـــن المكَّتَين على رجائـي ... حديثك أن أرى منه خروجا
بما خبَّرتنا مــن قــول قــس ... مــن الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمـــدا سيســـود فينـا ... ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضيـاء نــور ... يقيم بــه البريــة أن تموجا
فيلقى مــن يحاربــه خســارا ... ويلقــى من يسالمـه فلوجا
فيا ليتنــي إذا ما كان ذاكــم ... شهدت فكنت أولهــم ولوجا

وبقي ينتظر ويكتم حتى إذا بُعث النبي جاءه فقال له: "ذلك هو الناموس الذي نزل على موسى وإنك نبي هذه الأمة"، وقال له عبارة اختصرت كل سيرته، قال: "يا ليتني كنت جذعا إذ يخرجك قومك"، قال: أَوَ مخرجيّ هم؟ قال: ما جاء نبي بمثل ما جئت به إلا وآذاه قومه، ولئن كنت معك فلأنصرنك.

وظل بهذا ورقة بن نَوفل على هذه الصورة، أي مسلما مؤمنا لا بما عنده هو من حب للدين، وإنما بما عرفه من كتب أهل الكتاب.

كذلك نحن نقرأ في سورة الأعراف قول الله تعالى {قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، ويبدو من الآية وتعداد الصفات أن وصف النبي ﷺ كان موجودا عندهم بهذا التفصيل، حتى لا يبقى لهم إلا أنه كلما انكشف لهم أمر جديد قالوا: هذا هو الذي نجده عندنا في الكتاب حقا.

قلنا إن النبي ﷺ لم يصل الشام في هذه الرحلة، ولذلك حكمة:

إن الشام هي البلد الذي اجتمعت فيه معظم النبوات، حتى قيل "ليس من نبي إلا وكان له في الشام شيئًا"، ولذلك فلا بد من شيء للنبي في الشام، لكن الله تبارك وتعالى جعلها له معجزة، وهي رحلة الإسراء والمعراج، حيث اجتمع كل الأنبياء هناك، أولئك الذين أُخِذ عليهم العهد أن ينصرونه، وما كان هذا ممكنا الآن -وهو في الثانية عشرة، ولم يبعث بعد- ثم كان ذلك بعد أن بُعِث، وفي سياق معجزة: وصف فيها المسجد الأقصى. ولو أنه وصل إلى الشام في هذه الرحلة لم يعد لهذه المعجزة معنى، إذ كان يُقال: إنما رأى المسجد الأقصى حينما كان صغيرا مع عمه أبي طالب، أما إذا تيقن الجميع أنه لم يذهب إلى المسجد الأقصى أبدا ولم يره ولم يدخله ولم يزره ثم عرف كل ما فيه، فهذه معجزة تدل على الإسراء. وإذا اجتمع الأنبياء جميعا -ومعظمهم كان مقره الشام- حوله فيُصلُّون خلفه في المسجد الأقصى فكأنهم يعطونه القيادة ولواء الإمامة.

وإذن، فوصوله إلى الشام في تلك الرحلة لم يكن -في قدر الله- أمرا يخدم الدعوة ولا الرسالة. وإنما أريد تحقيق الإرهاصات والأدلة، وقد تحقق ذلك فلا بد من الرجوع إلى الجزيرة العربية وألا يخرج إلى الشام حتى ذلك الموعد المقدور.

إنك تجد عند النصارى -الذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ في دينهم، أن المسيح -عليه السلام- لما أُرْسِل، كان من ضمن رسالته {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: ٥٠]، وذلك أن اليهود لما عصوا الله وأوغلوا في العصيان عاقبهم الله -تعالى- بسبب ظلمهم فقال: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ } [النساء: ١٦٠]، لقد عاقبهم الله بأن حرم عليهم بعض الطيبات. وهذا مثلما يعاقب الوالد ابنه الصغير بمنع ما يعطيه إياه من المال لما يتكرر منه من الخطأ، رغم أن هذا المال الذي يعطيه إياه مهم جدا من الناحية التربوية، فإن الطفل إذا حُرِم منه تماما فقد يدفعه هذا إلى السرقة من أقرانه، فإعطاؤه هذا المال هو في الحقيقة معين له على التزام الصفات الصالحة. ولهذا أيضا يجب أن يُعطى للطفل ما يُشبع حاجتَه، ثم ما يشبع رغباتِه إلا قليلا لكي يتعلم الادخار، فإشباع حاجته ضرورة كي لا يضطر إلى التلبس بالسرقة أو نحو ذلك من الصفات السيئة، وإشباع رغبته وما يحبه يجب أن يكون بأقل من هذا ليتعود التدبير، فيكون لديه حد الكفاية والاحترام، ثم يُقَيَّد كل هذا بالتربية الصالحة ومعرفة الحلال والحرام ومراقبة الله، فيستقيم بهذا إن شاء الله. وفي هذا الوضع يمكن أن يُحرم من هذا المال عقوبةً عارضة، ساعتها لن يتعلم السرقة وإنما سيتعلم ألا يكرر هذا الخطأ ليعود إليه ما مُنِع عنه، فيشعر بحلاوة الاستقامة.

لما أرسل الله نبيه موسى عليه السلام إلى اليهود، وكان قد وصل بهم العذاب حدًّا شنيعا: يُقَتَّل أبناؤهم ويُستحيى نساؤهم، وهذا أبشع ما يُرتكب في أمة، لأنه حين تُقتل الرجولة في أمة لا يبقى إلا انحراف المرأة، يبقى العوج، يبقى الجوع، يبقى الذل. أما إذا وُجدت الرجولة فسيوجد الجهاد، ويوجد من يكتسب الرزق ليُنفق، وتوجد القوامة التي تحول دون انحراف المرأة. لقد حرَّم الإسلام سفر المرأة مع غير ذي محرم لأنها بغير محرم ضعيفة، قد تسمع كلمة فتميل إليها وربما لا تستجيب لها، لكن تكرار المحاولات مرة واثنتين وثلاثة ينشأ لها في النفس فسوقا، وهذا أمر طبيعي. إن المرأة العفيفة إذا تكرر على مسامعها الكلمات الرقيقة، فإن الكلمة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة تصنع هوى وميلا قلبيا لا يُستطاع منعه.

فلذلك كان بنو إسرائيل -الذين يُقَتَّل أبناؤهم ويُستحيى نساؤهم- في بلاء عظيم، ثم لما نجّاهم الله فجعل لهم الماء أرضا ساروا عليها، ثم جعل الأرض ماء على فرعون فأغرقته ليكون عبرة لمن يعتبر، لكنهم لم يحمدوا الله بل عبدوا عجلا صنعوه، وظلموا ظلما متواليا، فقال الله تعالى {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ} [النساء: ١٦٠].

فلما جاء المسيح ابن مريم، وكان بنو إسرائيل قد تأدَّبوا وعاشوا أزمنة منها مُدَّةٌ تسمى العصر الذهبي لليهود، لأنهم عادوا إلى الله، جاء المسيح ليقول: {وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ}، فوضح من هذا أن موسى جاء مهيمنًا على ما قبله من الدين بشريعة جديدة، وأن المسيح لما جاء -أيها النصارى- جاء بما يهيمن على شريعة اليهود عندما أقرّ نفس العقيدة ولكنه أحل بعض الطيبات.

فما العجب إذا جاء محمد ﷺ فقال الله تعالى في شأنه أنه يعيد الشريعة لأصلها، فيحل جميع الطيبات {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: ١٥٧]، لأنه الدين الخاتم الذي يتَّزن به أمر الشريعة إلى يوم القيامة، فما من طيب إلا وهو حلال، وما من خبيث إلا وهو حرام، وهذا شرع الله الذي أرسل به محمد.

ومع ذلك كذبوا به برغم ما لديهم من علم كامل به.

ومن ذلك مثلا ما رواه ميسرة -غلام خديجة- لما رافق النبي ﷺ في أول قافلة تجارية يديرها النبيﷺ، أنه نزل في ظل شجرة قريبا من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب على ميسرة، فقال: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟، وميسرة لا يعرف شيئا بطبيعة الحال ومنتهى علمه أنه خرج مع تاجر، فقال: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي.

قد تكون هذه معجزة: أن يصرف الله الناس عن النزول تحت هذه الشجرة، كأن يكون ما تحتها مبتلا أو غير نظيف أو أن تكون أغصانها متكسرة لا تنشر ظلا أو غير ذلك، وفسرها بعض العلماء على أن الراهب يقصد أن الذي نزل تحت هذه الشجرة الآن ليس إلا نبيا.

والراهب هو العالِم عند النصارى، أما الحبر فهو العالِم عند اليهود، وإنما قيل راهب لأن النصارى هم من ابتدعوا الرهبانية، فأصبح من صفات عالمهم أنه راهب يترهب وينقطع للعبادة.

وثمة قسم آخر من الناس عرفوا النبي ﷺ من قبل أن يُبعث، أولئك هم المتحنِّفون أو الأحناف، وهم الذين اتبعوا الحنيفية، وسيأتي بعد ذلك من يقول: نحن أولى الناس بإبراهيم، فيرد عليهم الله تعالى بقوله {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [آل عمران: ٦٧]، فيُقال: فأولى الناس بإبراهيم أولئك الحنيفيون الذين جاءوا قبل بعثة محمد ﷺ، فيقول الله تعالى بأن الأولى بإبراهيم صنفان {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا} [آل عمران: ٦٨].

وذات مرة بينما يمشى أبو طالب ومعه ابن أخيه إذا بيهودي ينظر إليه فيصرخ بأعلى صوته، ويقول: يا معشر يهود... [٣].

إن الذي نسأل البشر جميعا عنه أن هذه الوقائع كانت قبل أن يُعلن محمدُ ﷺ أنه نبي بسنينَ طويلة، وقت أن لم يكن يَعرف هو أنه سيكون نبيا، ما الذي يجعل كل هؤلاء يقولون: هذا نبي هذا الزمان؟ بحيرا والرهبان والذي صرخ في سوق اليهود: اقتلوا هذا الغلام، وبكا وورقة بن نوفل، وسلسلة متعاقبة من الرهبان اتبعهم سلمان الفارسي.

لا سبيلَ آخرَ أمام هذه الوقائع التي حدثت قبل أن يَعرف النبي ﷺ أنه نبي إلا أن تمتلئ قلوبنا يقينا بأنه نبي ورسول، وسيرته معروفة من قبل بعثته، يعرفها أهل العلم ممن سبقوه على كل حال.

وإليك قصة سلمان الفارسي، فهي عجيبة جدا.. ويطيب لي أن أسميه "رجل تحرك في الكون"! وهي تدلك على أن أصحاب الكتب السابقة كانوا ينتظرون نبيا، ليس أي نبي وليس معرفة على وجه العموم، وإنما يعرفون صفاته ومكان خروجه وخصائص شخصيته، فلا تنطبق صفاته على أحد غيره.

يقول سلمان:

كنت رجلا فارسيا من أهل أصبهان، من قرية يقال لها جَيٌّ، وكان أبي دِهقانَ قريته (أي ناظر الزراعة)، وكنت أحبَّ خلق الله إليه، لم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تُحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قَطَنَ النار (أي خادمها) الذي يوقدها، لا يتركها تخبو ساعة.

(٣) انقطاع في التسجيل، ولكن فحواه أن اليهودي صاح: اقتلوا هذا الغلام، وقد كادوا أن يفتكوا به حتى استنقذ أبو طالب نفسه بالمناداة على الناس.

وكانت لأبي ضيعة عظيمة، فُشِغَل في بنيان له يوما، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنياني هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب إليها فاطلعها. وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني فإنك إن احتبست عني كنت أهمَّ إليّ من ضيعتي، وشغلتني عن كل شيء من أمري.

فخرجتُ أريد ضيعته التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أَمْرُ الناس، لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتَهم دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، فلما رأيتهم أعجبتني صلاتُهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا -والله- خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما برحتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي فلم آتها، ثم قلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام.

فرجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي، وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بني أين كنت؟ أولم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت له: يا أبت، مررت بأناس يصلون في كنيسة لهم، فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آبائك خير منه، قال: قلت له: كلا والله، إنه لخير من ديننا.

فخافني، فجعل في رجلي قيدا، ثم حبسني في بيته. وبَعَثَتْ إليَّ النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم. قال: فقدم عليهم ركبٌ من الشام تجارُ من النصارى، فأخبروني بهم، فقلت لهم: إذا قضوا حوائجهم، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم، فآذنوني بهم.

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام. فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين علما؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة. فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، فأحببت أن أكون معك، وأخدمك في كنيستك، فأتعلم منك، وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت معه.

وكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه شيئا منها اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قِلالٍ من ذهب وورق. فأبغضته بغضا شديدا لما رأيته يصنع، ثم مات، فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة، ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها، اكتنزها لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئا. فقالوا لي: وما علمك بذلك؟ قلت لهم: أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه. فأريتهم موضعه، فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءةً ذهبا وورقا. قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبدا. فصلبوه، ورجموه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر، فجعلوه مكانه.

يقول سلمان: فما رأيت رجلا لا يصلي الخمس، أرى أنه كان أفضل منه وأزهد في الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلا ونهارا منه. فأحببته حبا لم أحبه شيئا قبله. فأقمت معه زمانا طويلا، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان، إني قد كنت معك وأحببتك حبا لم أحبه شيئا قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله تعالى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم اليوم أحدا على ما كنت عليه، فقد هلك الناس، وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلا بالموصل، وهو فلان، وهو على ما كنت عليه فالحقْ به.

فلما مات وغُيِّب لحقت بصاحب الموصل، فقلت له: يا فلان، إن فلانا أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، فقال لي: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته خيرَ رجلٍ على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات. فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلانا أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلم رجلا على مثل ما كنا عليه، إلا رجلا بنصيبين (٤)، وهو فلان، فالحق به.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبُه، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه. فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان، إن فلانا كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، قال: فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني، والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلا بعمُّوريَّة (٥) من أرض الروم، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، فإنه على أمرنا.

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل، على هدى أصحابه وأمرهم. قال: واكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة. ثم نزل به أمر الله تعالى، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي بي؟ وبم تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك به أن تأتيه، ولكنه قد أظل زمانُ نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام، يخرج بأرض العرب، مُهاجَرُهُ إلى أرض بين حرَّتين، بينهما نخل به علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتمُ النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل.

(٤) نصيبين: مدينة تركية في الجنوب الشرقي، تقع على الحدود مع سوريا.
(٥) عمورية: مدينة في وسط تركيا.

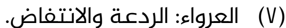
ثم مات وغيب، ومكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مَرَّ بي نَفَرُ من كلب تجار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض العرب وأعطيكم بقراتي هذه وغنيمتي هذه، قالوا: نعم. فأعطيتهموها وحملوني معهم، حتى إذا بلغوا وادي القرى ظلموني، فباعوني من رجل يهودي عبدا، فكنت عنده، ورأيت النخل، فرجوت أن يكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق في نفسي، فبينا أنا عنده، إذ قدم عليه ابن عم له من بني قريظة من المدينة، فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها بصفة صاحبي، فأقمت بها، وبُعث رسول الله، فأقام بمكة ما أقام، لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عَذَق (٦) لسَيِّدي أعمل له فيه بعض العمل، وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن لمجتمعون بقباء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فلما سمعتها أخذتني العرواء (٧) حتى ظننت أني سأسقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ فغضب سيدي، فلكمني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك. قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال.

فلما أمسيت جمعت ما كان عندي، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله وهو بقباء، فدخلت عليه ومعه نفر من أصحابه، فقلت: إنه بلغني أنك ليس بيدك شيء، وإن معك أصحابا لك وأنكم أهل حاجة وغربة، وقد كان عندي شيء وضعته للصدقة، فلما ذُكر لي مكانكم رأيتكم أحق الناس به، فجئتكم به، ثم وضعته له، فقال رسول الله: «كلوا» ، وأمسك هو، قال: قلت في نفسي: هذه والله واحدة.

ثم رجعت، وتحول رسول الله ﷺإلى المدينة، وجمعت شيئا، فسلمت عليه، وقلت له: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وقد كان عندي شيء أحب أن أكرمك به من هدية أهديتها كرامة لك ليست بصدقة، فأكل وأكل أصحابه، قال: قلت في نفسي: هذه أخرى.

ثم رجعت، فمكثت ما شاء الله، ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببقيع الغرقد (٨) قد تبع جنازة رجل من أصحابه وعليّ شملتان (٩) لي، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليه، ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وَصف لي صاحبي، فلما رآني رسول الله استدبرته عرف أني أستثبت في شيء وُصف لي، فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فأكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله : تحول، فتحولت فجلست بين يديه، فقصصت عليه حديثي.



(٦) عذق: نخلة
(٧) العرواء: الرعدة والانتفاض.
(٨) موضع المقابر الآن في المدينة.
(٩) الشملة: الكساء الغليظ.

وتأمل هنا في هذا السبب التاريخي الذي حمل اليهود على الهجرة إلى المدينة، ذلك أنهم كانوا يعرفون صفتها وسمتها ويعلمون أنها مُهاجَر نبي "أرض فيها نخل بين حرَّتين في جزيرة العرب"، وهي أوصاف المدينة، ولك أن تعجب مِن هذا الذي هاجر أجداده ليكونوا ضمن دولة الرسول فلما قامت دولة الرسول عارضها وتمرد عليها، فهذا إنما يشهد دينه عليه بالظلم، فدينه الذي حمله على الهجرة إلى هذه الأرض بعينها.

وإلا فمن أين أتى سلمان بهذه الصفات؟ إنما هو من علم أهل الكتاب.

إن الذين يعاندون الإسلام ما هم إلا جهلة أو مكابرون يعرفون الحق ثم ينكرونه، ولا ثالث لهما.

لقد أحصيت عدد الكتب التي سأنقل منها، من كتب الديانات السابقة، فوجدت أربعة عشر كتابا حافلة بذكر محمد -صلي الله عليه وسلم-، بل وفيها ما سيأمرهم به، فلقد كان في تاريخ اليهود أمور مباحة ثم حُرِّمت عليهم بظلمهم وذنوبهم، ثم جاء المسيح فأحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم كما ذكر القرآن عنه {وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ} [آل عمران: ٥٠]، فكانوا يعلمون أن محمدا حين يُبعث فسيُحِلّ لهم بقية ما كان حلالا وحُرِّم عليهم. ولهذا فقد أنبأتهم التوراة بالأحكام قبل محمد، وكان الله يوجه نبيه {قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [آل عمران: ٩٣].

المتحنِّفون

ليست الكتب السابقة التوراة والإنجيل فقط، ولا أهل الديانات هم فقط أتباع موسى وعيسى عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

في مكة كان يتردد اسم إبراهيم عليه السلام، فهو الذي رفع القواعد من البيت، لم يبنه وإنما جاء في وقت كانت معالم المسجد الحرام قد انطمست ولم تكن معروفة وجهلها الناس وضلوا الطريق إليها فعرّفه الله تبارك وتعالى مكان البيت وقال {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ} ثم عهد إليه أن يطهر البيت وأن يرفع القواعد من البيت.

لقد وفدت قبائل من العرب المهاجرين، سُمُّوا "العرب المستعربة"، فسكنوا في هذا المكان الذي بدأت تدب فيه الحياة عندما فجَّر الله بئر زمزم من تحت قدمي إسماعيل عليه السلام، فصارت تحلق الطيور، فرأتها القوافل، فاستدلت على أن هنا ماء، فمن هنا سكنوها، ونشأت مكة ونشأت القبائل التي سيكون من نسلها قريش. فالقرشيون وُجِدوا في هذا المكان ببركة دعوة إبراهيم عليه السلام، فكان انتسابهم إليه أمرا بديهيا، إنهم لا ينتسبون لا إلى يهود ولا إلى نصارى بل ولا ينسبون أنفسهم إلى نبي الله ورسوله موسى عليه السلام ولا إلى نبي الله عيسى عليه السلام.. وإنما ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم عليه السلام، وكانوا يفخرون بهذا، يقولون: نحن على دين إبراهيم. حتى الذين عبدوا الأصنام كانوا ينتسبون إلى إبراهيم، فهو الذي بنى البيت ورفع قواعده.

إلا أن أناسا آخرين اختلف شأنهم، فقد بحثوا في الكتب وعند أهل العلم عن دين إبراهيم، ماذا يقول، ثم صار يظهر بين الفينة والفينة من يقول: أنا أعبد الله على دين إبراهيم. بل منهم من قال: يا معشر قريش، والله الذي لا إله غيره ليس منكم أحد على دين إبراهيم غيري!

هذه الطائفة اسمها المتحنفون، قالوا إن دين إبراهيم كان هو الحنيفية، فمن انتسب إليها فهو المتحنف، وذكرت الكتب أسماء بعض منهم مثل كعب بن لؤي (وهو الجد السابع للرسول)، وقُس بن ساعدة، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وأميَّة بن أبي الصلت.. وآخرين. قالوا: إن عبادة الأوثان ليست من دين إبراهيم.

فمن أين جاءوا بهذا؟

إننا نقرأ في كتاب ربنا قوله تعالى {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}، فلقد كان لإبراهيم عليه السلام صحفا، وقد انتقلت بطريقة أو بأخرى بين الناس، وحرَّفها البعض، كما وردت في صحف بني إسرائيل من طريقٍ آخر، ووردت في صحف موسى، ووردت في الإنجيل الذي أوحاه الله إلى عيسى، ووردت في الكتابات التي كتبها أتباع المسيح عيسى عنه.

فجاء من كل ذلك الكلام عن إبراهيم وعن دين إبراهيم.

ومن هنا أخذ المتحنفون الذين كانوا يتبعون دين إبراهيم بهذا القدر الصغير الذي وصلهم، وفي هذا القدر الصغير كانوا يُبشِّرون ويعلمون ويُعلِمون أن هناك نبيا رسولا اسمه محمد سوف يُبعث وهو نبي هذا الزمان.

وهنا نقف عند رجل كان ابنه في زمن رسول الله ﷺ، بل كان من العشرة المبشرين بالجنة، وهو أقلهم شهرة: سعيد بن زيد، واسم أبيه هو زيد بن عمرو بن نفيل.

ذهب سعيد بن زيد ليسأل رسول الله عن أبيه زيد، قال له: يا رسول الله، إن أبي كان كما قد رأيت وبلغك، ولو أدركك لآمن بك واتبعك، فأستغفر له. قال: "نعم فاستغفر له، فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده".

وانظر إلى سلطان الإسلام على النفس، إذا أخلص الإنسان نفسه لربه، سلطان الإسلام الذي منع رجلا أن يستغفر لأبيه في بيته إلا إذا سأل رسول الله، لأنه يسمع قول الله تعالى {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}، فلكونه لم يدخل في الإسلام توقف الرجل في الاستغفار لأبيه.

هذا الأب، زيد بن عمرو بن نفيل، أعلن أن هذه الأصنام باطل، وأن هؤلاء حرفوا اليهودية، وهؤلاء حرفوا النصرانية، وروي عنه أنه قال: "اللهم لو كنت أعلم على أي وجه أعبدك لعبدتك عليه"، فكان يستغفر الله أنه لا يعرف كيف يعبده فلم يوح إليه ما يدله على مثل هذا.

ولهذا قال النبي ﷺ عنه "يُبعث يوم القيامة أمةً وحدَه"، فيأتي موسى عليه السلام بأمته ويأتي عيسى بأمته ويأتي إبراهيم بأمته، ويأتي سيدنا محمد بأمته، ويأتي زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده، لأنه عرف بطلان ما عليه الناس ولم يعرف أين الحق، فأشهد ربه، فغفر الله له لأنه أسلم بهذه الكلمة، ولم تكن هناك نبوّات.

وقد ورد عن هؤلاء كلام عن النبي ﷺ، فهذا كعب بن لؤي، وهو من المتحنفين وقد عاش قبل مولد الرسول بـ ٥٠٠ سنة، أو على وجه الدقة ٥٢٠ سنة، أي بعد رفع المسيح عيسى ابن مريم من بين أصحابه بأقل من ١٠٠ سنة، وقد حفظ العرب عنه بيت شعر يقول فيه:

على غفلة يأتي النبي محمدُ .. فيُخبـــر أخبـــاراً صدوقا خبيرُها

فهو ها هنا يُصرِّح باسم النبي، وأنه يكون في زمن قادم.

كما حفظت عنه العرب بيتا آخر يقول فيه:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته .. حين العشيرة تبغي الحق خِذلانا

فهو يعرف أن العشيرة سترفض ما جاء به من الحق، ويتمنى أن يكون شاهدا لتلك اللحظة.

ثم يقول نثراً: "وأَيْمُ الحق، لو كنت فيها ذا سمع وبصر ويد ورجل، لتنصَّبت فيها تنصب الجمل ولأرقلت فيها إرقال الفحل".

فأقواله هذه يُستدل بها على أن وصف النبي موجود في الصحف التي وصلت إلى المتحنفين على قلتها.

أما أمية بن أبي الصلت فهذا رجل شهد أول الدعوة، وكان أيضا من المتحنفين، فقرأ في الكتب الأولى أن نبيا يُبعث من العرب، ورأى نفسه طيبا صالحا فطمع أن يكون هو هذا النبي، فلبس وشوح الأنبياء، وأخذ يجتهد في العبادة والطاعة ويكثر من ذكر الله ويذكر النبيين السابقين إبراهيم وإسماعيل ويذكر دين الحنيفية ويشرحه للناس ويبينه، وحرم الخمر وهجر الأوثان وطاف بالرهبان، يفعل كل هذا طمعا أن ينال به النبوة. ولكن النبوة لا تُنال، أي لا يصل إليها أحد بالاجتهاد، وإنما هي اصطفاء من الله.

ومنهم أيضا قُسُّ بنُ ساعدةَ الذي كان يعظ الناس في الأسواق، ومنهم -كما ذكرنا- زيد بن عمرو بن نفيل. وقد رأى الرسول ثلاثة منهم: أمية بن أبي الصلت، وقس بن ساعدة وزيد بن عمرو بن نفيل. إن ما جاء عن المتحنفين لا يضيف فكرة جديدة، وإنما يضيف عنصرا جديدا، فكلام من تحنَّفوا يؤكد ما جاء في التوراة والإنجيل.

الإسلام دين الأنبياء

إن دين الله واحد دائما، ليس ثمة أديان متعددة، وإلا لم يكن الأنبياء ليقولوا شيئا واحدا، إن الأنبياء قالوا نفس العقيدة، نفس الرسالة.. يقول تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ}، ولا ينبغي أن نتعجب عندما يقال في عرض البشارات "مسلم راهب يعبد الله على دين المسيح"، لأن الإسلام هو دين الأنبياء جميعا، والرهبانية ابتُدِعَت لعبادة الله ابتغاء وجه الله، قال تعالى: {وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ}.

إن نوحًا عليه السلام كان مسلما، دينه الإسلام، ومن قبل نوح جاء في الآثار الصحيحة أنه "كان بين آدم ونوح عشرةُ قرون كلُّها على الإسلام"، أي: ألف سنة كلها على الإسلام.

وبعد ذلك أتي سيدنا نوح، الذي يقول الله تعالى عنه {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: ٧١، ٧٢].

وإبراهيم عليه السلام -النبي الثاني من أولي العزم من الرسل- قال الله تعالى عنه {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [آل عمران: ٦٧]

ويذكر الله -تعالى- إسلامه في سورة البقرة، فيقول -تبارك وتعالى- فيها: {وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [البقرة: ١٣٠، ١٣١] وليس هو فحسب، بل {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ} [البقرة: ١٣٢] وهم إسحاقُ ويعقوب، وكذلك وصّى بها يعقوب بنيه، وهم سيدنا يوسف -عليه السلام- والأسباط {يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٢].
فإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف والأسباط الأحد عشر، كل هؤلاء كان دينهم الإسلام!
بل يقول الله -تبارك وتعالى- في سورة الحج عن إبراهيم -عليه السلام- {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحج: ٧٨].

واسمع قول الله تعالى {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٣]. فالوصية التي توارثها الأنبياء هي الإسلام، دين واحد، ليس لإبراهيم دين غير الدين الذي جاء به موسى غير الدين الذي جاء به عيسى، دين واحد اسمه الإسلام منذ خلق الله الأرض إلى هذه الساعة.

وإنك لتجد ذكرا خاصا لسيدنا إسماعيل -عليه السلام- في القرآن الكريم في سورة البقرة، حيث يقول الله -تعالى-: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (721) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البقرة: ١٢٧، ١٢٨].

ونجد لوطا عليه السلام -وقد عاش في زمن سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل- مسلما، وذلك في قصة الملائكة الذين حضروا إلى سيدنا إبراهيم على هيئة ضيوف، فقدَّم لهم طعاما {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ} [هود: ٧٠]، وقوم لوط هم الذين أحل الله لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، فتركوا النساء وصاروا يأتون الذكران من العالمين، فأرسل الله إليهم العذاب على يد الملائكة، فقال لهم سيدنا إبراهيم -كما في سورة الذاريات- {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (٣٤) فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } [الذاريات: ٣١ - ٣٦]. فالبيت الوحيد الذي نجا هو البيت الذين على دين لوط عليه السلام، وهم المسلمون.. فالإسلام كان أيضا دين لوط عليه السلام الذي كان يدعو إليه قومه.

واسمع قول الله تعالى عن سيدنا يوسف عليه السلام، الذي جُمعت قصته في سورة واحدة، ولم تأت في غيرها إلا إشارات، قال عنه بعد أن اكتمل لسيدنا يوسف أمره على عرش مصر، وجاءه أبواه ورفعهما على العرش، وخرَّ له إخوانه سُجَّدا، واستقر الأمر له، كان آخر ما قال: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١].

واسمع قول موسى عليه السلام لقومه {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ} [يونس: ٨٤]. فالدين الذي أنزله الله على موسى اسمه الإسلام، ولذلك قال الرسول "لو كان أخي موسى حيّا ما وسعه إلا أن يتبعني".

ويقول الله تعالى عن موسى عليه السلام {إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: ٤٤]، إذن يحكم بها النبيون الذين أسلموا والربانيون الذين أسلموا والأحبار الذين أسلموا.

وإنك لتعجب من قصة سليمان عليه السلام، وذلك أن بعض الأنبياء يسرد الله تبارك وتعالى قصة كونه مسلما ويدعو قومه إلى الإسلام في آية واحدة، بينما الأنبياء الذين فَصَّل الله في إسلامهم

هم الأنبياء الذين يتخذهم أعداؤنا اليوم عنوانا وشعارا؛ فهؤلاء اليهود يقولون نحن أتباع سليمان، ونريد بناء هيكل سليمان، والنجمة التي في رايتنا نجمة داود، ولهذا يكرر القرآن أن دين سليمان هو الإسلام ليس مرة واحدة بل أكثر من مرة:

ففي سورة النمل يقول الله تعالى حكايةً عن ملكة سبأ {قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [النمل: ٢٩ - ٣١]. فسليمان -إذن- يدعو إلى دين اسمه الإسلام.

وفي ذات السورة، لما عرف أن ملكة سبأ استجابت لدعوته، قال {قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ} [النمل: ٣٨]، فهو -إذن- يشهد على من استجاب لدعوته أنه بذلك قد دخل الإسلام.

وفي ذات السورة لما دخلت الملكة إليه في عرشه ووجدت عرشها قالت: {كَأَنَّهُ هُوَ} فيقول: {وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ}.

ولما أسلمت الملكة قالت: {رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [النمل: ٤٤].

وإذن، فالدين الذي كان يدعوا إليه سليمان، والذي استجابت له الملكة وكانت عليه هذه الأمم من الطير والجن والإنس والحيوان، كان هو الإسلام.. ومن هنا فإذا قالوا: نهدم المسجد الأقصى لنبني هيكل سليمان فإنما يقولونها بظلم، فإن سليمان عليه السلام صلَّى خلف رسول الله في المسجد الأقصى؛ رسول الله إمام وسليمان يأتم به. فلقد أُخِذ عليه العهد كما قال الله تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ} [آل عمران: ٨١] فمحمد هو الرسول، وسليمان ضمن النبيين الذين أُخِذ عليهم هذا العهد. ولذا فإنه -عليه السلام- برئ من هذا الذي يقال.

ويتصل الموكب بالأنبياء حتى يختم بعيسى عليه السلام، الذي قال كلاما واضحا لا لبس فيه، وذلك حين أُرسِل إلى قومه فمنهم من آمن ومنهم من كفر، {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٥٢]. فها هو عيسى عليه السلام قد أُرسل بالإسلام.

ويقول الله تعالى في سورة المائدة، {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ} [المائدة: ١١٠، ١١١]

إذن.. كل هؤلاء كانوا على الإسلام.

والمسألة مشهورة، كي لا يظن أحد أن عمر الإسلام ١٤٠٠ عام فحسب، بل الإسلام دين كل الأنبياء. يدل على هذا أيضا حديث صحيح يقول فيه نبي الله "الأنبياء أولاد عِلات، أُمَّهاتُهم شتَّى، ودينهم واحد"، وبنو العلات هم الإخوة الذين أبوهم واحد وأمهاتهم متفرقات.

ولذلك فنحن حين يقول المتحنفون عن الرسول ﷺ شيئا، أو يقول اليهود، أو يقول النصارى.. فنحن نقول لهم: إن الدين الذي كنتم عليه هو الإسلام، ومحمد ﷺ حينما أتى ليدعوكم إلى دين إنما كان يدعوكم لدينكم، لا أنه كان يأمر بالخروج من الدين للدخول في دين آخر، وإنما هو الإسلام الذي أوحاه الله تبارك وتعالى إلى كل أحد من الأنبياء والمرسلين.

ماذا يبقى؟!!

آدم، ثم عشرة قرون بعده، ونوح.. وإسماعيل.. وإبراهيم.. وإسحاق.. ويعقوب.. والأسباط.. ويوسف.. ولوط.. وموسى.. وعيسى.. وسليمان.. وداود.. وليس أولئك كل الأنبياء إذ إن الله لم يذكر لنا سوى ٢٥ نبيا في القرآن، ومع ذلك فقد جاءت آية جامعة في كتاب الله عز وجل..

{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [البقرة: ١٣٦].. والحقيقة أنها ليست آية واحدة، بل طائفة من الآيات تقول بوضوح: لم يكن من دين في هذه الأرض أنزله الله تعالى ودعت إليه الأنبياء إلا الإسلام.. {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: ٨٤].

والمقصود من كل هذا أن الله تبارك وتعالى حين جعل دين الناس واحدا، فإن الذي يبدل فيه ويغير يكون هو الظالم.. أولئك الذين كتموا العلم! وكتمان العلم هذا أمر خطير، لقد صارت للدول مباحث ومخابرات ودواوين لأجل أن تكتم العلم في أفواه وقلوب وصدور الذين يعلمون.. لماذا؟! لكي تتبدد العقائد والأديان، فتنشأ أديان جديدة غير التي أنزلها الله.. وهم كلما فعلوا ذلك أرسل الله رسولا يصحح الأديان السابقة وينبه ويحذر إلى مواطن الخروج والانحراف..

لذلك فإن آية آل عمران السابقة جاء بعدها مباشرة {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥) كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [آل عمران: ٨٥ - ٨٩].

ونفس هذا المعنى في قول الله تعالى قبلها بآيتين {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [آل عمران: ٨١ - ٨٣].

كل هذا يثبت أن دعوة الأنبياء جميعا دعوة واحدة، دين واحد اسمه الإسلام. والله تبارك وتعالى لم يُسَمِّ ما أنزله أديانا بل دينا واحدا كما في سورة الشورى {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} [الشورى: ١٣]. فجعل دين كل الأنبياء دينا واحدا هو الإسلام.

لم يبق إلا آيات في منتهى الأهمية في سورة القصص، عن الذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى، وحتى المتحنفين، وذلك قوله تعالى {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠) {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [القصص: ٥٠، ٥١].. وتأمل في هاتين الآيتين {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ} [القصص: ٥٢، ٥٣]

لما جاء النبي ﷺ وتلا عليهم القرآن آمنوا به، لكن المهم هنا هو أنهم ذكروا سبق إيمانهم بالدين من قبل أن يسمعوا القرآن، فالقرآن دينهم الذي حدثتهم عنه التوراة والإنجيل.. فلما آمنوا ذكر الله جزاءهم بقوله: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: ٥٤، ٥٥].

لهذا، فالأمر وبكل الوضوح أن الإسلام لما جاء إنما كان يدعوهم إلى دينهم نفسه، حقيقة دينهم الذي كانوا عليه، لم يكن الإسلام دينا خاصا بنا نحن، إنما هو الدين الواحد الذي أُرسل به الرسل إليهم من قبلنا، وكانت دعوتهم أن يؤمنوا بدينهم..

الخاتمة: خطورة كتمان العلم وتحريف الدين

لكن السؤال هنا: ما الذي جعلهم يُغيِّرون ويبدِّلون؟

إن أخوف ما أخاف منه، وما يجب أن نخاف منه جميعا، الحديث الذي يقول فيه الرسول: "لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ قُلْنَا:يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟" أي: فمن غيرهم. والضب: هو الفأر الصغير، أي أن اتباعهم سيصل إلى درجة عالية.

لقد قيل هذا الكلام للصحابة؟ ففزعوا.

فلا بد أن نكون في منتهى الخوف، أن نضل الطريق، بحيث أنهم كما خربوا دينهم نخرب نحن ديننا.. أمر في منتهى الخطوة!

فكيف خرب هؤلاء دينهم الذي هو الإسلام ووصلوا به إلى هذا التردي؟!

إن الدافع قد يكون أنهم اتبعوا أهواءهم بغير علم، إنما أخطر من هذا أنهم أَتْبَعوا ذلك بأمور منها: كتمان العلم.

كتمان العلم: أن يسكت الذي عنده العلم!

هذا يؤتى به يوم القيامة، ليس شيطانا أخرس فحسب، وإنما يؤتى به يوم القيامة ويعذب، لأن الله لم يأمر الذين آمنوا أنهم إذا سُئلوا أجابوا، وإنما أخذ الميثاق بأمر آخر، أخذه ببيان العلم ابتداءً من غير أن يكون سؤال، قال تعالى {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ} [آل عمران: ١٨٧].

إن الطغيان السياسي اليوم يعم البلاد، ليس من بلد اليوم تخلو من الطغيان السياسي، وقد أقاموا أجهزة المباحث والمخابرات، أجهزة ضخمة من أجل أن تُكتَم درجةُ معينة من درجات الحق، يُسمح بالقول لكن إلى حد معين لا يصل إلى درجة الحق هذه. فيظل جزء من الدين مختفيا، فإذا قيلت وظهرت توصم بأنها "تطرف" و"إرهاب"، مع أنها من الإسلام، إذا فتحت القرآن وجدتها فيه.

وقد حدثت واقعة بين الرسول ﷺ وبعض أهل الكتاب، سألهم عن الحكم في قضية فقالوا له: الحكم كذا، فقال لهم: لا، بل الحكم الذي في التوراة هو نفسه الحكم الذي في القرآن، هاتوا التوراة واتلوها، فأتى صاحبهم فوضع يده على موضع من التوراة وظل يقرأ، فقال النبي له: ارفع يدك، فكان تحت يده الحكم المراد.

هذا المشهد المضحك، رجل يضع يده على شيء من الصفحة كي لا تظهر للناس، هو الحقيقة التي حدثت عبر قرون طويلة، أن يظل جزء من الدين مكتوما، أن يكون الحديث مسموحا به إلا في جزء بعينه، مع أنه من صلب الدين. فهذا من أخطر ما تتعرض له الأمة الإسلامية، ومن أخطر ما تعرض لها مَن قبلهم: الكتمان!

هذا الذي يكتم العلم فيريح نفسه في الدنيا، يأتي يوم القيامة فيُعذَّب أشد العذاب، ذلك أن الله أنعم عليه بالعلم ليبينه للناس، لا ليكون سدًّا يحجب الناس عن نور الله!

إني لأعلم بعض الناس الذين يؤم دروسهم الآلاف، بدأ الأمر معهم بأن اتفق مع واحد فحسْب أن يعلمه، ثم زاد الواحد إلى اثنين ثم إلى أربعة ومائة وألف وثلاثة آلاف، وأصبح لقاءً مشهودا ويُبنى ويُربَّى عليه. لأن ذا العلم مأمور بالبلاغ ولو لم يوجد إلا واحدا فيجب أن يُبلِّغ، لا بد أن يبلغ، ولا يسعنا أن نسكت.. لا يسعنا أن نكتم الحق.

بل إن رسول الله ﷺ قال: "لا يحقر أحدكم نفسه"، قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: "يرى أمرا لله عليه فيه مقال ثم لا يقول فيه. فيقول الله -عز وجل- له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى".

فيذهب العبد إلى نار جهنم، انظر كيف لم يصمد لله خمس أو ست سنوات، فيوضع في نار جهنم خمسين أو ستين سنة! والعياذ بالله.. ومن يصبر على نار جهنم؟!

إن أي أمة ترتضي أن تكتم من دين الله شيئا، سيحدث لها مثلما حدث مع اليهود والنصارى، صار دينهم غيرَ الدين الذي نزل على نبيهم.

وقد يسأل سائل: إن الله يقول: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، فلن يحدث تحريف.

وأنا أقول بأن القرآن {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} فالله هو حافظه، أما التوراة والإنجيل فقد عهد الله بحفظهما لأهل الكتاب فقال {بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ} [المائدة: ٤٤] فكان الناس هم المستحفظين، فلن يضيع القرآن مثلما ضاعت التوراة والإنجيل.

أما نحن، فنحن المكلفون بحفظ "تطبيق هذا الدين"، حفظ "إقامة أحكامه".. لا أن يأتي أحد فيكتم أمر "الحكم بما أنزل الله" فيخفيها خوفا وحرصا، ولذلك يأتي ضباط الأجهزة الأمنية فيقولون: ما بال الدين الذي تتكلم فيه غير الدين الذي يتكلم فيه غيرك، لماذا لا تتحدث في الصلاة والصيام والزكاة والحج وبر الوالدين وإطعام المسكين ... إلخ!

صحيح أن هذا كله في دين الله، وفي دين الله أيضا الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله، وإقامة الدولة الإسلامية.

أنا مكلف بالبيان، لا أضع ولا أرفع شيئا من كتاب الله، إن وظيفتي أن أتكلم في الإسلام كما هو الإسلام.

إنني إذا دخلت في الصلاة أقرأ في سورة البقرة {الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ} [البقرة: ١ - ٣]، وفي سورة البقرة نفسها {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ} [البقرة: ٢٧٥]، فهل يسعني أن أقفز عليها؟!
بل يجب أن أقرأها، ومن رضي أن يكتم فإنه هو الذي يبدل الدين.

يجب أن أنتبه إلى أن الذين جاءهم وصف النبي بدقة في كتبهم ثم كذبوه إنما كان ذلك نتيجة الكتمان!

يوم القيامة يأتي الناس بين يدي الله يقفون، فيهم الضعفاء وفيهم الأقوياء، يقول الضعيف: يا رب، لم أكن أستطيع الوقوف أمام هؤلاء، لقد كانوا السادة ونحن الضعفاء، فكتمنا، اقرؤوا قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ} [النساء: ٩٧]، فلم يكن هذا حجة لهم، بل قيل: {أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا}، ثم ذكرت الآية أن مآلهم إلى جهنم {فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}.

{إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا} [النساء: ٩٨] فالشيخ الكبير أو النساء أو الأطفال الصغار هم المعذورون.

إن القرآن يقول أنه لا يخضع ضعيف لقوي في معصية ما إلا بإجرام في نفس الضعيف، إجرام يستحق العذاب، كما يقول الله -تبارك وتعالى- في سورة سبأ {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ} [سبأ: ٣١] فانظر كيف سماهم القرآن جميعا ظالمين؛ القوي ظالم والضعيف ظالم، لأن القوي لا يتفرعن إلا لأن الضعيف لم يحافظ على حقوق الله.

يقول الضعفاء للأقوياء: لولا أنتم لكنا مؤمنين، فإذا بالذين استكبروا يقولون {قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ} [سبأ: ٣٢]

لماذا لم يُقْبَل عذر الضعف من الضعيف؟ لأنه لم يخضع للقوي إلا لما فيه من الإجرام، إجرام اختيار الدنيا على الآخرة، فإن الآخرة في يد الله لكن الدنيا تبدو في يد هذا القوي، فاختار الدنيا التي في يد هذا القوي على الآخرة.. فهذا هو الإجرام.

إن كتمان العلم يأتي من هنا، وقد عرف الضعفاء أن نفوسهم أحبت الدنيا، وحب الدنيا هذا هو الذي أنزلهم هذا المنزل، فردوا على الأقوياء بأنهم من زرعوا فيهم هذا، قالوا: {وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣٣].

فاحذر من كتمان العلم، احذر أن تكتم علما في أبسط شيء، في رجل ضرب رجلا، أو رجل أخذ قرشا من رجل وأنت شاهد، ثم لم تشهد بالحق، إياك أن تكتم الشهادة في قضية ولو بسيطة، قال تعالى {وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ} [البقرة: ٢٨٣].. فكيف بكتمان الدين؟!

أنت مأمور أن تبين للناس وألا تكتم، فإياك أن تعتاد كتمان الحق وأنت تعرفه، وإلا فهذا هو بيع الدين بثمن بخس، بثمن بخس جدا.. قل الحق ولو بقدر ما تستطيع.

إن بلال بن رباح وهو يُعَذَّب ويُضْرب والصخرة على صدره، كان يقول: أحدُ أحدُ.. تُرى لماذا؟ لأنه يرى الحق والإسلام والدين وليدا، وليدا صغيرا ينمو، وعاين التعذيب الشديد الذي يحاول قتل الوليد الصغير بهذه القوة والشراسة، فخاف.. خاف من هلاك هذا الوليد الصغير، فعزم أن يبقى هذا الحق الوليد ولو بأن يرفع بنانه ويقول: أحدُ أحد.. كي يبقى صمود الوليد، كيف يفشل التعذيب في أن يقهر الدين، وهكذا كان من معه مثل عمّار وخبّاب وسميّة وياسر.

يجب علينا أن نقف عند الدين، فالحق حق.

إن التحريف والتبديل في غاية الخطورة، أن ترفع شيئا وتضع شيئا لم يقله الله، بل قال غيره، فترفع أنت ما وضعه الله وتضع شيئا من عندك، هذا وضع مؤسف وخطير.

إن ثمة من يهاجم السنة النبوية، يقول: لا أدري ما هو الصحيح وما هو الخاطئ، هذا صحيح وهذا ضعيف، فلنترك السنة كلها.

إن مثل هذا كالذي لما سمع رجلا يقول: هذا ابني وهذا ليس ابنا لي، قال له: دعك من هؤلاء جميعا، فليسوا بأبنائك!!

إن مثل هذا كالذي لما سمع رجلا يقول: هذا ابني وهذا ليس ابنا لي، قال له: دعك من هؤلاء جميعا، فليسوا بأبنائك!!

إن الاعتراف ببنوة أحدهم ونفي بنوة الآخر، يثبت أن الرجل يعرف أبناءه وأنهم معروفون معدودون، فالحديث إذا قيل: حديث صحيح وحديث ضعيف وحديث حسن وحديث كذا وحديث كذا، فهذا معناه أن الأحاديث معروفة. ولذلك لما أُمر بقتل زنديق قال لهم: "أين أنتم من ألف حديث وضعتها فيكم أُحرِّم فيها الحلال وأُحلُّ فيها الحرام، ما قال النبي منها حرفا، فقال له هارون الرشيد: أين أنت -يا عدو الله- من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك؟ فإنهما ينخلانها نخلاً فيخرجانها حرفاً حرفاً". فإن العلماء وضعوا علم الرجال فيعرفون من روى عن من ومن سمع من.

هل تظن أن الحديث الذي تقرؤه أتى هكذا؟ لا، إنما الحديث الذي يقال معروف من سمعه من النبي، ومن سمعه منه، ومن سمعه من الثاني، وهكذا سلسلة السماع حتى وصلت للكتاب الذي سُطِّرت فيه كالبخاري وغيره، ثم طبعت وصارت مشتهرة بين الناس.. هذه السلسلة من السند معروف أشخاصها، أسماؤهم وأحوالهم ورحلاتُ سفرهم وما درسوه، وهل مرض قبل موته أم لا، ومنهم -مثلا- من عاش ثمانين سنة، فنحن نتتبع حياته ولو وجدناه ظل سبعين عاما صالحا وتقيا ونقيا وورعا وإماما في العلم، ثم غاب عنا خبره وجهلنا تاريخه في العشر سنين الأخيرة من عمره.. هذا الرجل، لو كان موجودا في سلسلة السند لا تُقبل روايته إلا حين نعرف هل روى هذا الحديث في السبعين عاما الأولى، ومالم نعرف هذا فلا تؤخذ منه الرواية.

إن علماء الحديث يعرفون رواة السند أكثر مما يعرف الداعية من يحضرون دروسه، أكثر مما أعرف أنا من يحضرون أمامي جميعا.

هذا التشكيك في الدين يُقصد به اختلال الدين، فانتبهوا..



هدية العدد ١٢ من مجلة كلمة حق، يوليو ٢٠١٨